وزارة الثقافة

رؤياي

تأليف: عارف العارف

برنامج الحفاظ على الرواية

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

رؤياي

وزارة الثَّقافة الفلسطينية

سلسلة الموروث الثقافي

اسم المؤلف: عارف العارف

اسم الكتاب: رؤياي

الطبعة الأولى: ١٩٤٣ مطبعة الآباء الفرنسيسكان، بيت المقدس

الطبعة الثانية: ٢٠٢١

الإشراف العام: عبد السلام عطاري

مراجعة وتدقيق: رشيد عِناية – نور عرفات

لوحة الغلاف للفنان: جبرا إبراهيم جبرا

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين

www.moc.pna.ps

رُؤيَاي

تأليف

عارف العارف

حقوق الطبع والنقل والترجمة محفوظة المؤلف

مطبعة الآباء الفرنسيسيين في بيت المقدس

١٣٦٢ هـ — ١٩٤٣ م

رؤياي

مقدِّمة الكتاب

كنت أثناء الحرب المنصرمة (١٩١٤) ضابطا في الجيش التركي. ولقد أسرت مع من أسر من الضباط في موقعة (أرضروم) الشهيرة التي انخذل فيها الأتراك، وانتصر الروس. فساقونا إلى جبال القفقاس أسرى، ومنها إلى أزاسط روسيا، فإلى سيبيريا ذات البرد القارس، والمجاهل الواسعة المخيفة. وهناك في (ويوني غورودق) بالقرب من قراسنويارسق قضينا ثلاثة أعوام.

كثيرا ما تقاذفتنا، خلال أعوام الأسر، أمواج اليأس والرجاء، فكنا تارة نهدد بالجوع، وأخرى بالبرد؛ طورا بانقطاع أخبار الوطن العزيز، وآخر بالتعب الشديد، والتحطيب في الحراج والغابات، إلى أن أتتنا أخبار (الثورة العربية)، وانتقاض الملك حسين على الأتراك (١٩١٥)؛ فأخذت تجول في أدمغتنا فكرة الهرب من الأسر، والالتحاق بالثورة لنشترك في العمل والنضال في سبيل تحرير وطننا العزيز، وما هي إلا عشية أو ضحاها حتى أخرجنا تلك الفكرة إلى حيز العمل والتنفيذ؛ فهربنا.

وقد كنا واحدا وعشرين عربيا، يحمل كل واحد منا بين جنبيه حب الوطن العزيز: الوطن العربي الكبير، الذي لا يفرق بين دين ودين، والذي يضم بين دفتيه جميع أجزاء (الجزيرة العربية) من أدناها إلى أقصاها.

قمنا من (قراسنويارسق) الواقعة بالقرب من بحيرة (بايقال) في السادس عشر من شهر سبتمبر لسنة (١٩١٨) ثماني عشرة وتسعمئة وألف، وقد كنا نؤمل أن نصل إلى أوطاننا في بحر شهر أو شهرين على أكثر تقدير؛ ولكنا لم نصل إليها إلا بعد خمسة أشهر صحاح، ذلك لأنا مررنا في طريقنا بمنشوريا، وخاربين، وفيلادي وستوق الواقعة في أقصى الشرق؛ ثم باليابان، والصين؛ فعبرنا نهر (يانغ - شي - كيانغ) ، وزرنا شانغهاي، وهونغ كونغ الثغر الأمين الواقع على شاطئ بحر الصين، ولقد مررنا بشواطئ صوماتره، وفيليبين، ونزلنا سنغافورة الواقعة في أقصى الجنوب من قارة آسيا، كما أنّا هبطنا جزيرة سيلان التاريخية ، وتجولنا في عاصمتها (قولومبو). ولقد عبرنا البحر الهندي، ونزلنا بومباي؛ ثم مررنا بمضيق (عدن)، واجتزنا البحر الأحمر؛ ثم عبرنا قناة السويس، ومنها رجعنا إلى فلسطين لا اغالي إن قلت لكم، إنّا ما

انقطعنا لحظة واحدة، خلال هذه الرحلة الطويلة الشاقة، عن التفكير في قضية بلادنا وفيما كنا نتوقع لها من ازدهار في عهد الثورة وبعدها.

ولئن نسيت فلن أنسى حلما من الأحلام اللذيذة التي كثيرا ما كانت تساورني أثناء تلك الرحلة. ذلك هو الحلم الذي رأيته يوم غادرنا شانغهاي، وهو الذي وددت أن أنقله اليكم لتفتوني به إن كنتم للرؤيا تعبرون.

عارف العارف

رؤياي

في يوم الأربعاء، لسبع خلون من شهر ديسمبر سنة ثماني عشرة وتسعمئة وألف، غادرنا "شانغهاي" بعد أن مكثنا فيها ثلاث ليال. غادرناها قبل أن تميل الشمس إلى المغيب. فأخذت السفينة (دونيرا) تشق بنا عباب البحر. وكان البحر راكدا، والهواء صافيا، والجو نقيا؛ ولذلك كبرت آمالنا في أفئدتنا، وأجمعنا على أنه ليس ثمة من خطر علينا وعلى السفينة من أمواج ذلك البحر الصيني الذي طالما حدثنا عن أهواله السياح، وعن النفوس البشرية التي قضت نحبها فيه، والمراكب العديدة التي غدت طعمة لعواصفه الجهنمية.

أغار علينا سلطان الكرى بجيشه القاهر فأذعنا له صاغرين.

ولما نهضنا في صبيحة اليوم التالي، رنونا إلى الجو وإذا بصفائه قد استحال إلى حال عجيب، يلقي في الفؤاد الرعب والهلع.

رباه ماذا نرى؟ بحرا مزبدًا، وأمواجا متلاطمة، وجوا مكفهرا. أخذت الرياح تعصف من كل صوب، كأنها تود أن تحطم السفينة فتجعل البحر في أمان منها ومن جورها. ولما لم تجد أمامها حائلا

يصدها عما تبتغي، طغت وبغت فمزقت الغيوم المتلبدة في كبد السماء، وأرغمت الأمطار على الانهمار فأخذت هذه تهطل، وراحت السفينة تعلو وتهبط في حضن الأمواج الثائرة. وأما نحن فما كنا نسمع في جوف السفينة إلا أصواتا مزعجة، تحاكي قصف الرعود الهائلة. فخلناها تثب علينا لتلقي في أفئدتنا الرعب، ولتثبت لنا أن هذا الإنسان، اللابس رداء الخيلاء، والمتقمص بقميص الكبرياء، لم يكن في هذه الطبيعة الواسعة، إلا بمثابة قطرة من الماء في وسط بحر واسع الأرجاء.

قضينا سحابة ذلك اليوم العصيب، على تلك الحال، بين خوف ورجاء؛ إلى أن استهل النهار، وجن الليل. فانزوينا في غرفنا. وما كدت أستلقي على فراشي حتى لأدركني النوم. فخلت نفسي طائرا في الجو، يقلني طير أخضر اللون، عريض الجناحين، وهبته الطبيعة منية النطق، كما وهبتها الإنسان.

ارتعدت فرائصي لما رأيتني طائرا في الفضاء، وأخذت تساورني الأوهام. وكأن الطير علم ما بي من قلق البال، فبادرني بلسان عذب وقال:

- لا تخف يا صاح! إني أحبك؛ ولذا أريد أن أطير بك في سماء هذه الأكوان، لأريك من غرائب الدنيا ما لم تكن تحلم به من قبل. قل لي أي البقاع أحب إليك؟

عندها اطمأن بالي، وتبددت مخاوفي؛ فقلت له: "بلادي! بلادي العربية". فقال: "ما ألطف هذا الاسم! وما أجمل هذه البلاد! إنها بلاد علم ومعرفة، بلاد زراعة وصناعة، بلاد كسب وتجارة، بلاد سعي وعمل، بلاد جد ونشاط، بلاد نور وجمال، بلاد رقي وكمال".

أخذ مني العجب مأخذه عند ما سمعت هذا الكلام؛ لأني كنت أعلم العلم اليقين، أن بلادي كانت غارقة في محور الجهل والشقاء، وأن أمتي العربية كانت ولا تزال تتخبط في دياجير الجهل والضلال: لا روح ولا حياة، لا سعي ولا جد، لا حركة ولا نهوض.

قرأ الطير على وجهي، ما يكنه ضميري، فأسرع إليّ بقوله:

- تمسك بحبل الصبر. فسأريك عما قليل أشياء تذهل الألباب. انظر! ها هي ذي جزيرة العرب!
- جزيرة العرب؟ لا. إن هذا الأمر محال.

- لماذا؟

لأني سمعت قبل اليوم، أن هذه البقاع ليست إلا قفارا بلاقع؛ وصحاري طافحة بالرمال، غير صالحة للزرع والاستثمار؛ وإن فيها كثبانا رملية، وجبالا سيارة، ترتعش لذكرها الأبدان. ولقد قيل لي أيضا، إن تلك الكثبان ما أزمعت على الرحيل في قطر من أقطار هذه الجزيرة، إلا وجرفت أمامها، كل ما اعترضها في سيرها من قوافل وخيام. أضف إلى ذلك: جهل البدو، وبعدهم عن الفكرة الوطنية، وندرة الأمطار في ديارهم، وكثرة الجدب، والفاقة، والغزو وما إلى ذلك من الأمور التي نغصت على أبناء البلاد عيشهم، وسلبتهم راحتهم وسعادتهم وهناءهم.

وأما الآن، وقد تبدلت الأرض غير الأرض. فإني لا أرى على وجه الجزيرة، إلا أشجارا باسقة، وطيورا مغردة، وقصورا شامخة تجري من تحتها الأنهار. وكل ما هنالك من مواد وآثار، يشف لعمر الحق عن حياة في هذه الديار.

لا. لا! أهون عليّ أن أعتقد بوجود الغول والعنقاء، من أن أصدق بأن هذه الجنة الغناء، التي أراها تتلألأ في الأرض تلألؤ النجم في السماء، هي جزيرة العرب.

سمع الطير مقالي بهدوء وسكينة. فما كدت أتمه، حتى انبرى لإجابتي، فقال:

- آه أيها المسكين! إن جميع ما سمعته عن الجزيرة من قبل، أصبح الآن في خبر كان. إن الكثبان التي تعهدها، قد حيل دون سيرها، والريح السموم، قد اخترع من الآلات والطرق الفنية ما يخفف وطأتها. وأما الشمس التي كانت منبع الكسل والخمول من قبل فقد أصبحت منهلا تستسقي منه الأمة العربية جميع معدات الحياة. إذ إن أشعتها المحرقة أصبحت تقوم اليوم بوظيفة الكهرباء والبخار. إن الفن الحديث لم يعجز عن اختراع الوسائل الكافية لاستخراج الماء العذب من أعمق نقطة من نقاط الأرض. وعلى هذا المنوال، ترى الخيام قد رفعت، وتنقل البدو من مكان إلى مكان قد زال. لاسيما وقد كثرت المواصلات بفضل الطرق المنظمة،

والطيارات والسكك الحديدية، التي تربط أقرب البلاد بأقصاها، وأصغر المدن بأكبرها وأرقاها، ولقد أنشئت مدارس ومصانع، ومعامل ومعاهد، ومرافئ وأرصفة، وجسور وأنفاق، ومخازن وبيوت وقصور. فساد العدل، واستتب الأمن، وعم الهناء، وخمدت نيران الفتن والقلاقل التي كنا نسمع بنشوبها بين القبائل في كل صبح ومساء.

نعم. لقد انقضت أعوام عصيبة قبل أن ينال العرب هذا الهناء تكبدوا خلالها أنواع المحن وضروب الآلام. ولقد طرأت عليهم حوادث جعلتهم يضيعون مجدهم المادي زمنا قصيرا، إلا أنهم ظلوا محافظين على مجدهم الأدبي، بالرغم من مرور الأيام، وتكرر العصور. إن الدهر الذي أخنى عليهم بكلكله، يوم كانوا يرفلون في ثياب الذل والأسر ودواعي الشقاء التي سطت عليهم من كل جانب، سلبتهم كل ما ملكته أيديهم، إلا الدم العربي، فإنها لم تستطع مصه من أجسامهم. ومن كان يجري في عروقه ذلك الدم، لا يفقد أبدا مزية الذكاء والفطنة، والكرم والنجابة، والوفاء والفصاحة، والجرأة والإقدام، وسعة الخيال وسرعة انتقال. ومن البديهيات التي لا

تحتاج إلى دلائل وبراهين، أن الأمة التي تتحلى بهذه الخصال الشريفة، مهما لعبت بها يد الأقدار، لا بد أن يأتيها يوم تحطم فيه تلك اليد القاهرة، فترجع إلى سالف عهدها، وغابر مجدها.

ولذلك لا ترى الآن، أينما سرت وحيثما حللت في البلاد العربية إلا طرقا منظمة وشوارع واسعة، فسحات وميادين، هياكل وتماثيل، جنائن وبساتين، مدارس ومعاهد، مصانع وآلات، متاحف ومعارض، سيارات وطيارات، وغير ذلك من الوسائل التي تدل على عمران هذه البلاد، بعد أن كانت طلولا ينعق فوقها بوم الشؤم والخراب.

ولقد سمت مدارك العرب، وصارت أخلاقهم إلى الطبيعة والجمال أقرب منها إلى الغش والتصنع، فهم الآن ليسوا أسرى العادات والتقاليد كما كانوا من قبل، بل إنك تراهم دوما متمسكين بأذيال العلم والفن والمنطق، والفلسفة الرائقة الحقيقية.

ولذلك لا ترى بينهم ظالما ولا مظلوما، ولا ضاربا ولا مضروبا، ولا قاتلا ولا مقتولا. بل تراهم جميعا مواظبين على أعمالهم،

عاملين على تحقيق مبادئهم، باذلين كل ما في وسعهم لتخفيف مصائب البشر، والوقوف على سر هذا الوجود. وقصارى القول إن الأمة العربية، أصبحت اليوم أمة سعيدة، خبيرة بجميع ضروب السعي، وطرق الكمال؛ بعد أن كانت بالأمس جاهلة تعيسة، تلعب بها الأهواء كما تشاء.

سكت الطير هنيهة، ثم استأنف حديثه وقال:

- أتريد ان أهبط بك إلى الأرض؟
- قلت: "لا. لا. إن الأهلين في هذه الديار، على درجة قصوى من التعصب. ومن المحال أن ترتفع من بين ظهرانيهم الترهات والأباطيل. إنهم لا يودون أن يروا بالقرب منهم شخصا مستقلا في أفكاره. وهم، نعم هم يمقتون كل من قال بلسانه ما يكنه فؤاده وضميره. ويمزقون بأيديهم كل من نادي برفع الخرافات، وقال بوجوب اتباع العقل والضمير.
- إنك لعلى خطأ في ظنك يا هذا. فما ذلك إلا افتراء وبهتان. إن العرب أصبحوا في يومنا هذا أحرارا كل الحرية؛ أحرارا، ليس من الوجهة الإدارية والسياسية فحسب، بل من حيث الفكر

والدين أيضا، فلا رجال الدولة وفطاحل السياسة، حتى ولا أساطين العلم وفقهاء الدين، يستطيعون في هذا العصر، أن يرغموا شخصا من أفراد الدولة العربية الكبرى، على التمسك بإحدى العقائد الدينية. الدين أمر وجداني، ولا أحد يعاتب على عقيدته. إذ الجميع يعتقدون بأن هذا الأمر يجب أن يبقى بين العبد وربه. وكذلك الشرائع المدنية فإنها تحظر على ولاة الأمور اتباع الطرق السقيمة، التي كانت متبعة من قبل، إن باستطاعة كل فرد يعيش تحت ظلال الراية العربية، أن يفكر كما يشاء، ويقول كما يفتكر، ويكتب كما يفتكر ويقول، إن العربي المسلم أصبح يفكر الآن، بسعادة أخيه المسيحي، كما يفكر بسعادته، وسعادة أطفاله. إنه لا يرى هنالك سببا لبغض أخيه المسيحي، لمجرد اختلاف العقيدة الدينية. وكذلك يفعل المسيحي، وكلاهما يقول عن أخيه: "هذا هو عربي مثلي. إنه أخي في الوطنية والقومية.

إنه يعيش في بلاد أعيش فيها، ويأكل من نعم التربة التي آكل منها، ويستنشق الهواء الذي استنشقه في كل صبح ومساء. إن الدم العربي الذي يجري في عروقه يجري في عروقي أيضا.

إنا نحن الاثنين نرجع إلى أصل واحد، ومجد واحد، وتاريخ واحد. إنه ينطق بالضاد كما أنطق بها، ويفاخر بلغته العربية المحبوبة كما أفاخر بها. ولو لم يكن بيني وبينه، من الروابط التي تقربه إلي وتقربني إليه، إلا اللغة والتاريخ، والبيئة والمنافع، لكفى، وما افتراقنا في الدين والمذهب، إلا كافتراق أخوين وتبايُنِ فكريهما في إحدى المسائل البسيطة الاجتماعية؛ إذ إن تضارب الأفكار، وتباين المشارب والأهواء، أمر معدود من ضروريات هذه الحياة الاجتماعية.

- قلت: "وكيف تم هذا الاتحاد، وقد تركتها بالأمس يتضاربان. هذا يقول بالاستقلال، وذاك ينادي بالذل والخضوع، أجل، أرجوك، يا ملاكي الكريم، وقد أحسنت إليّ كل هذا الإحسان، أن تكشف لي الستار عن هذا الأمر الغامض، وأن تقول لي كيف تآلفت القلوب، واتحد الفريقان، وماذا صنعا بالعراقيل التي كانت بالأمس عقبة كؤدا في سبيل التآخي والاتحاد؟

فقال:

- إنا لو سبرنا غور المصائب التي ألمت بالعرب من قبل، واستطلعنا حقيقة أمرها، لوجدنا أنها كانت تصدر عن منهل واحد: هو (الجهل).

ولما نالت الأمة العربية بغيتها، وطهرت بيدها منهل شقائها، ورفعت في ميادين القتال راية عزها واستقلالها، اعترف لها القاصي والداني بحق الحياة. فأنشأت معاهد التعليم الوطنية، ووحدت برامج التعليم فيها، فجاء عملها هذا آية في التعقل والإخلاص، جامعًا لأسباب الرقي والكمال.

ولا مشاحة أن الجهل عدو المدرسة، والتعصب عدو الكتاب. ولا بد لهذين الخصمين، من أن يوليا الأدبار، ويركنا إلى الفرار، متى نشر العلم رايته، وقبض المنطق على زمام الأمور.

لذلك لا ترى بين العرب في يومنا هذا، من لا يفهم معنى الحياة. نعم، ليس بينهم من يرضى بالذل والهمجية. ليس بينهم من لا يود أن يعيش عيشة شريفة، طيبة هنيئة، مرضية. والمسلم والمسيحي في هذا الامر سواء.

وبعد أن اخذ العرب نصيبهم من العلم، وأصبحوا مدركين حقيقة هذا المجتمع الإنساني، شادوا صرح دولتهم على أساس وطيد، لا تزعزعه الخطوب، ولا تؤثر به عوامل الأيام، فأصبح كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا. ثم صرحوا على ملأ الأشهاد أن النهضة العربية نهضة قومية لا دينية. ولذلك لا بد من التفريق، بين كرسي السلطنة ومنصة الدين.

قالوا وفعلوا. وعلى هذا النمط، أوجدوا في بحر مدة قصيرة، دولة عربية كبرى.

وسترى بأم عينك، عندما نهبط إلى الأرض، أشياء تقنعك، بأن العرب ما نجحوا في مهمتهم، وأوجدوا هذه الدولة القوية البأس، العظيمة الحول، الضخمة الملك، العزيزة الجانب، إلا بعد أن استأصلوا شأفة التعصب من بين ظهرانيهم، وبددوا من سماء أفكارهم غياهب الجهل والضلال.

- قلت: وماذا فعل الزمان بفلسطين العزيزة، فلسطين التي كان يطمح إليها الأغيار؟
- قال: إنها الآن ترتع في بحبوحة من العز، والراحة، والهناء الدائمي.

إن دواعي الشقاء التي كانت تسيطر عليها من قبل قد زالت، وجراثيم الاجتماع الفتاكة التي كانت تنهش جسمها الضعيف قد أبيدت.

إنه لا أثر اليوم للتخالف الديني والحزبي والأسري الذي كنا نسمع به من قبل. بل الكل إخوان، والجميع على أتم ما يكون من الصفاء والوفاق. يعملون متحدين نحو هدف واحد، وغاية واحدة، وضمن إطار واحد، وتشكيلات واسعة منظمة لا يمكن أن يعتريها الفساد، أو يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

نعم، لقد اعتورت الفلسطينيين صعاب كثيرة، قبل أن يصلوا إلى ما وصلوا إليه؛ ولكنهم تمكنوا من اجتياز تلك الصعاب بفضل تنظيمهم، واتحادهم، وتضحيتهم، وثباتهم؛ واعترف لهم القاصي والداني بحق الحياة.

وها هم أولاء اليوم يشعرون بالحرية، والعزة القومية أينما حلوا وحينما ساروا فوق هذه الكرة الأرضية.

- قلت: ومن هو ملك العرب؟

- قال: إن الدولة العربية الكبرى، مؤلفة من سبع عشرة جمهورية هي: الحجاز، نجد، اليمن، حضرموت، عمان، البحرين، الكويت، العراق، سوريا، لبنان، شرق الأردن، فلسطين، مصر، طرابلس الغرب، تونس، الجزائر، ومراكش. لكل واحدة منها رئيس ينتخبه الشعب وفقا للشروط المسطرة في قانونها الأساسي، ولكل واحدة منها مجلس تشريع، ومجلس وزراء. أما الأول فمهمته سن القوانين، ومراقبة الأمور؛ وأما الثاني فلا شغل له إلا تنفيذ ما سن من القوانين، والقيام بالمشاريع التي تعود بالنفع على الشعب والوطن. تختلف قوانين هذه الجمهوريات عن بعضها، باختلاف طبائع أهلها، والبيئة التي يعيشون فيها. ولا يتاح لواحدة منها التدخل بشؤون الأخرى، أو التصرف بالمصالح العامة التي تخص الدولة، إلا برأي من (اللجنة العربية العليا). وهذه اللجنة مؤلفة من ثمانين عضوا، تنتخبهم الجمهوريات السالفة الذكر، بالنسبة إلى عدد كل واحدة منها. وهي التي تمثل (الاتحاد العربي الكبير. إن الوزراء في كل قطر، يسألون عما يفعلون، أمام مجلس التشريعي، لا أمام

اللجنة العليا. ولكن للدولة وزارتين مشتركتين هما: الخارجية والمالية. ورئيسا هاتين الوزارتين، يسألان عما يفعلان أمام اللجنة العليا، التي تمثل الدولة العربية بأجمعها كما قدمنا، تثابر اللجنة العليا على أعمالها ست عشرة سنة. فتنتخب للرئاسة عليها، أحد أعضائها في كل عام. على أن يستوفي كل من الحجازي، والنجدي، واليمني، والحضرمي، والمعاني، والبحري، والكويتي، والعراقي، والسوري، واللبناني، والأردني، والفلسطيني، والمصري، والطرابلسي، والتونسي، والجزائري، والمراكشي، نصيبه من الحكم، والتربع فوق منصة الأمر والسيادة. فالرئيس الذي يتبوأ كرسي الحكم في عام من الأعوام، هو (ملك العرب) في ذلك الزمان. وعلى هذه الطريقة تمكن العقلاء من درء الأخطار التي كان يتوقعها المتشائمون من جراء السيادة والزعامة بين العرب.

- قلت: ومن يشهر الحرب، ويعقد الصلح، وينظم الجيوش، وينشئ الأساطيل، ويبرم المعاهدات، ويقود الجحافل، ويفتح الأمصار؟
- فأجاب: "لا لزوم لهذه الأشياء، إذ لا حرب في العالم.

خامرني الريب في صحة ما يقول، وظننت أنه يهزأ بي، فثار حقدي، وهاجت براكين غضبي. وانقضت لحظة على تلك الحال، وأنا فزع، مضطرب، ساخط، مرتبك، حائر، ثائر، لا أدري كيف الخلاص من ذلك المأزق الحرج. وكأن الطير أدرك ما كان يجول في خاطري في تلك الآونة، فالتفت إلي، ورمقني بعين الحب والحنان. ثم قال لي بجنان ثابت، ولسان فصيح:

- "يخيل لي أنك في ريب من صدق أقوالي. ولكن لا بأس. ستثبت لك الايام أني فيما أقول على صواب، وأنك فيما تظن على خطأ وضلال. وحسبك الآن أن تعلم، أن الإنسان قد قطع في هذا العصر أميالا شاسعة في ميادين الرقي والكمال. إنه تغلب على الطبيعة كل التغلب، فهي لا تستطيع الآن أن تلعب به كما تشاء، كما كانت الحال في القرون الغابرة. وبعد أن كان لا يوجد فرق بين الإنسان والبهائم في تلك الأزمان، إزاء الطبيعة ومصائبها الفتاكة، أصبحنا نرى الآن بينهما بونا شاسعا في هذا المضمار".

كان الإنسان إذ ذاك أسير الطوارئ والصدف، فأصبحت هذه سجينة في قبضته؛ كان ألعوبة بيد الجرائم القتالة، فريسة للأمراض والأوباء؛ فأصبحت هذه ذليلة خاضعة أمام عقله، ودهائه، وجبروته، وسلطانه؛ كان حقيرا، ضعيفا، لا يستطيع أن ينبس ببنت شفة إذا ما سطت عليه غياهب البرد، والحر، والعطش، والجوع؛ فأصبح اليوم آمرا، مطاعا، قادرا على تبديد تلك الغياهب، في بحر مدة أقصر من لمح البصر.

وكيف يقدم إنسان كهذا الذي وصفته لك الآن، على سفك دم أخيه الانسان؟

كانوا في الأزمنة الغابرة، إذا اقترف أحد الناس جناية، فقتل أخاه الإنسان، لا يجدون له عقابا سوى (الموت). وأما في عصرنا هذا، فإنك لا ترى أثرا لتلك المناظر الفظيعة. ولو أنعمنا النظر في الأمر، لوجدنا أن أبناء القرون المنصرمة، كانوا مخطئين كل الخطأ، فيما كانوا يعتقدون. إذ كان من الواجب عليهم أن يسعوا، بغير هذه الوسيلة، لإنقاذ البشرية من براثن تلك الأمراض الاجتماعية الفتاكة. ولو ضربوا في سبل العلم والمنطق عصا تأملهم، لوجدوا

أن هذا النوع من العقوبات لا يجدي نفعا، ولتحقق لديهم أن السبب الوحيد في ازدياد الشرور، ونمو عدد الجناة في العالم، هو (نظام البشر) الفاسد الذي كانت الأعمال البشرية تحوم حوله في ذلك الحين.

هنا رجل شرير قتل جار، وهناك آخر كذب أو سرق؟ ترى لماذا اقترف الأول هذه الجناية الشنعاء، وما الذي قاد الثاني لهذا العمل الممقوت؟ أله في البيت أطفال يتضرمون على جمر الجوع أم لا؟ وهل باستطاعته أن يشتغل في أحد المكاتب أو المعامل ولم يشأ أحد أن يستخدمه في مكتبه أو معمله؛ أم هو عاطل، سقيم لا يقدر على العمل ولكن صراخ أولاده الجائعين أرغمه على القيام، فقام يفتش عن وسيلة للخلاص؟ وأية حرفة يحترف؟ وما هو مبلغ علمه وتربيته؟ وهل قام أبواه بواجبهما نحوه في نعومة أظفاره أم لا؟ وماذا صنعت البيئة التي تحوطه من كل جانب، أو الحكومة التي تولت أموره، في سبيل تهذيب أخلاقه، وتوسيع نطاق عقله ومداركه؟ وماذا أعدت له القوانين من الوسائل، التي يستطيع أن يصد بها تيار المطامع البشرية المتنوعة؛ ذلك التيار الهائل الذي كان يثب عليه، ويتوعده بالهلاك في كل لحظة وآن؟

تلك أمور هامة، كان يجب على حكام الأعصر المتقدمة، وقضاتها، وحكمائها، ورؤسائها، وواضعي قوانينها أن يضعوها نصب أعينهم، عندما كانوا يسنون القوانين، وينشرون الشرائع، وينادون بملء أصواتهم أنهم لا يقصدون سوى تهذيب أخلاق البشر، ودرء الأخطار، التي أوشكت أن تودي بهذا المجتمع الإنساني إلى هوة الفناء.

وأما الآن، فقد تبدلت الأحوال، وتغيرت الأحكام، وسادت السعادة، وعم الهناء. ولو هبطت إلى الأرض، وتجولت في جميع أنحاء البلاد فإنك لا ترى هنالك قاتلا ولا سفاكا ولا باغيا ولا حقودا؛ بل إنك ترى الجميع، وفي طليعتهم العرب، منصرفين إلى الوقوف على:

سر هذا الكون العجيب

إن قلمي ليعجز وايم الحق، عن وصف ما خالج فؤادي من الفرح والسرور، في ذلك الحين. وما كنت لأستطيع كف العبرات، التي أخذت تنهال على وجنتي. فتاقت نفسي إلى الهبوط، كي أرى بعيني، ما سمعته أذني قبل بضع ثوان.

أعربت الطير عما في ضميري. فما كان منه إلا أن قال "لبيك" وانطلق كالسهم يشق بي جوف الفضاء. وما زلنا على تلك الحال، برهة من الزمن، إلى أن وقعت أنظارنا على أديم الغبراء، فشرع يهبط بي رويدا رويدا؛ إلى أن نلنا منانا، ووطئت أقدامنا وجه البسيطة. عندها تنفست الصعداء، وشعرت كأن اشعة السرور والارتياح، قد نفذت إلى فؤادي، الذي كان في ذلك الحين، يتراوح بين أمواج اليأس والرجاء.

أنا الآن على باب مدينة كبيرة اسمها (إيلياء). ولكن أين الطير؟ إنه الآن كان بجانبي. وماذا عساي أقدر أن أعمل، إذا لم يكن ذلك الملك اللطيف، ملاك الحب والحنان، رائدي ونصيري في هذا البلد الغريب؟

التفت يمنة ويسرة، علِّي أجده. ولكن دون جدوى! رباه ما العمل؟ آب اليأس، وعاد القنوط إلى روحي الكئيبة مرة أخرى. وبينما كنت مطرقا إلى الأرض، قادحًا زناد قريحتي؛ لأرسم لنفسي خطة أسلكها في غربتي، إذ حانت مني التفاتة، فرأيت على بعد بضع

خطوات مني، شيخا كلل الشيب هامته. فدنوت منه، وطرحت عليه السلام، ثم قلت له بلسان يتلعثم:

- ألك يا مولاي أن ترشدني إلى الطريق؟ وأن تقول لي ما اسم هذه المدينة، وكيف السبيل إلى التخلص فيها من قوارص البرد، وأنياب الجوع؟

كان الشيخ حينئذ ينظر إليّ شذرا، ويرمقني بعين السخط والازدراء. خيل لي أنه لم يأبه لقولي، ولم يعر كلامي أذنا صاغية. فهممت بمغادرته، كي لا يحصل ما لا تحمد عقباه. بيد أنه لما أدرك بغيتي، أوقفني وقال:

- إني أخالك غريبا، لم يطرق بابنا، ولم يقف على شيء من عاداتنا قبل اليوم. أما هذه المدينة، فاسمها (إيلياء). وأما البرد والجوع، فيتعذر فيما أظن على شاب مثلك قوي البنية التخلص منها في هذه الديار، إذا طرق أبواب التسوّل والاستجداء.
- حسن ما تقول. ولكني غريب يا مولاي!

- "ما لي أراك تكثر استعمال كلمة (مولاي). اعلم أني لست بمولى لك ولا لغيرك، وما مولاك سوى نفسك. إنك فيما أرى عربي، وتنطق بالعربية، ولكن أراك جاهلا بما صارت إليه أخلاق العرب في هذا العصر. ألا تدري أن العرب نبذوا من أخلاقهم، وعاداتهم القديمة، كل ما لم يرجع بالأصل إلى الطبيعة، والسذاجة، والبداهة، والجمال؟ إنك الآن طرحت عليّ السلام، وتمنيت لي الخير دون أن تعرفني. وماذا يدريك لعلي غير جدير بذاك الخير الذي تتمناه لي. ثم إنك خاطبتني مرتين قائلا: (يا مولاي)، قبل أن تختبرني، وتقف على حقيقة حالي، وقبل أن تعرف هل أنا حقا أرفع منك قدراً وعلما، فيليق بي هذا الخطاب، أم أنا أحط منك منزلة وأوضع قدراً، فلا أكون أهلا لهذا الإجلال والتبجيل؟ أوصيك أيها الشاب أن ترجع في جميع أعمالك إلى الطبيعة، وأن تخلع عنك هذا الرداء القديم: رداء التصنع الممقوت".

ما كاد الشيخ ينطق بآخر حرف من مقاله، حتى تركني ومضى في سبيله، دون أن يقول لي سبب انصرافه؟ ووجهة مسيره.

وأما أنا، فقد بقيت حائرًا، مفكرًا في أمري، وأمر ذلك الرجل الغريب الأطوار. وأذكر أني لبثت على تلك الحالة، أكثر من عشر ثوان. ثم انثنيت، ويممت شطر المدينة. فدخلتها خائفا، مرتابا. ولكن روعي ما لبث أن زال، عندما وقع نظري، على مكتبة، مخطوط على جدرانها الكلمات الآتية:

مكتبة قس بن ساعدة

أُسِّسَت في ٣ آذار سنة ستين ومائة بعد الألفين م.

فما كان مني إلا أن دخلت مع الداخلين، فوجدت القاعة غاصة بوفود المتعلمين، وجماهير المطالعين. هذا يقلب الكتب والرسالات، وذلك يتصفح الصحف والمجلات؛ هذا يقرأ، وذلك يتأمل؛ هذا يرنو إلى الخرائط والرسوم، وذلك يبحث عن الموجود والمعدوم. السكون سائد، وطائر الأدب والكمال يرفرف فوق الجميع. لا ضحك ولا ضوضاء، لا ضجيج ولا اصطخاب، ولا صراخ ولا جدال!

اندمجت في حلقتهم، وشرعت أضرب على وترهم. فتناولت كتابا، كان موضوعا على المنضدة المنتصبة أمامي، وأخذت أقلب الطرف في صفحاته. وفيما أنا كذلك، وقع نظري على مقال، تحت عنوان:

خرافات العرب في القرن العشرين

فتاقت نفسي لقراءة تلك السطور، مؤملا أن أجد بينها، ما أستطيع أن أقمع بفضله شأفة الأسرار والغوامض، التي اعتورتني مذ شعرت نفسي طائرا في الجو، إلى أن ولجت باب تلك المكتبة.

لا أنكر أنه صعب علي فهم ذلك المقال حق الفهم، إذ إنه كُتِبَ بأسلوب غريب، لا أغالي إذا قلت، إن الفرق بينه وبين أسلوب ادباء هذا العصر، كالفرق بين هؤلاء وبين أدباء عصر الجاهلية. إلا أن هذا الأمر، على ما هو عليه، لم يردعني عن فكرتي، ولم يثبط شيئا من عزيمتي. بل جعلت أقرأ ما كتب، وأستقصي الكلمات التي استعصى عليّ فهم معناها، من قواميس تلك المكتبة، إلى أن تيسر لي فهم ما جاء في ذلك المقال، وإليكه على وجه الإجمال:

لا ريب، في أن من يجيل الطرف في كتب التاريخ، التي تضم بين أسطرها وقائع العصر العشرين، لا يستطيع أن يملك نفسه عن

الضحك والاستغراب، لما يجده في بطون تلك الكتب من الأفكار السخيفة، والخزعبلات المضحكة، التي كانت مسيطرة على عقول السواد الأعظم من أبناء ذلك العصر، ولو أردنا أن نسطر هنا، جميع ما اتصل بنا من تلك الخرافات والمضحكات، لنفد المداد، قبل أن نبلغ المراد. ولكن لا بد لنا من ذكر ما علق في الذهن، وخطر على البال، في هذه الآونة، ليرى أبناء هذا العصر الذهبي، ما كان عليه أولئك المتعجرفون، الذين كانوا يزعمون أنهم عائشون في عصر الحضارة والنور:

١. كانوا يعتقدون بأشياء لا حقيقة لها، ويرجعون بأفكارهم دوما إلى ما وراء الطبيعة، مع أنهم لا يعلمون شيئا عن أسرار الموجودات الماثلة أمام أعينهم.

٢. بلغ من احتقارهم للطبيعة والعلوم الطبيعية، أنهم كانوا يؤثرون التمسك بأقوال القراء والمنجمين، على نصائح العلماء والمتفننين.

٣. برهن أحد علماء ذلك العصر، بطريقة الاستنتاج، على أن الكواكب، والسيارات، وجميع هذه العوالم الفلكية، مسكونة؛

وأن فيها من ذوي الأرواح وغيرها ما في الأرض من إنسان، وجماد، ونبات، فرماه فريق بالجنون، وفريق آخر بالكفر والإلحاد.

٤. كانوا يتمسكون بأذيال الأباطيل القديمة، والآراء السخيفة، ويهزأون بمن ينادي بينهم بوجوب اتباع سنن النشوء والارتقاء، ويقولون له: على هذا وجدنا آباءنا. (أو لو كان آباؤهم لا يعقلون؟).

٥. كان الشطر الأكبر منهم لا مبدأ له. بل كنت تراهم، يخبطون خبط عشواء في جميع ميادين الحياة.

٦. كانوا يقولون بأفواههم، ما ليس في قلوبهم. ومن حاد عن هذه الخطة السقيمة، سلقوه بألسنة حداد.

٧. كانوا يطرحون السلام، على من لا يودون أن يروه. ويقيمون الحفلات، والولائم، لمن ليس له في أفئدتهم مقام؛ ولم يكن رائدهم في هذه الأعمال، إلا الرياء والمواربة في أغلب الأوقات، والانقياد إلى العادات، أو التملص من عتاب الناس أحيانا.

٨. كان أبغض شيء لديهم، أن يسمعوا بآذانهم، ما ليس يرضيهم. ومن أقدم على ذلك، أصبح لديهم من المبغضين.

٩. الاتجار كان يعد عارا في نظرهم. والانخراط في سلك التوظيف مقبولا لديهم. وقد اتصل بنا أن الفاقة، إذا عضت بنابها، رجلا من أفراد الأسر العريقة بالحسب، تؤدي به إلى هوة الهلاك. إذ إنهم كانوا يؤثرون الموت، على طرق أبواب الربح والاتجار.

١٠. كانوا يغدون ولا ينجزون.

١١. كانوا ينهجون سبل الإرهاب في جميع أعمالهم: في البيت، والمدرسة، والإدارة، والسياسة ترى القول الفصل العصا والصراخ، لا إلى اللين والمنطق.

١٢. ما كانوا يعرفون للنظام والترتيب معنى في عمل من أعمالهم. أمورهم فوضى لا سائس لها ولا زاجر.

١٣. كانوا جاهلين بأمور التربية، ونخص منها بالذكر، تربية الأطفال. وقد اتصل بنا، أنهم كانوا يميتون أولادهم وأفلاذ أكبادهم، بأيديهم من حيث لا يشعرون؛ وما ذلك إلا لجهل الأمهات بطرق التربية الحقيقية.

١٤. كانوا لا يعتبرون من الرجال، إلا كل ذي جاه زائف، أو سلطة واسعة، أو مظهر فخم، أو مال طائل، أو نسب قديم.

١٥. كان الشطر الأكبر منهم، لا يكترث بمسائل الوطن والوطنية؛ ولا يحرك ساكنا إذا ما ألمت بوطنه المصائب، وداهمته وقومه الأرزاء.

١٦. كانوا عيونا للغريب على أوطانهم.

١٧. كانوا يؤثرون التكلم باللغات الإفرنجية على النطق بلغتهم العربية الجميلة.

١٨. كانوا يحتقرون متاجرهم وصناعاتهم الوطنية، ويركضون في هذا المضمار وراء كل ما هو غريب عنهم.

١٩. كانوا يبيعون أراضيهم للغرباء لقاء دريهمات لا تسمن ولا تغني من جوع.

٢٠. كان (الحب) العذري مبغوضا لديهم. ويدخلون المحبين في عداد المجانين.

٢١. كانوا يتزوجون من الفتيات، اللاتي لا يعرفون عنهن شيئا، سوى ما اتصل بهم، على لسان الأخوات والأمهات.

٢٢. من أفظع ما روي عن عادات أجدادنا في ذلك العصر، أنهم كانوا يرغمون الفتاة، على مد يد الزواج، لرجل لا تحبه، ولا ترضى أن يكون لها بعلا.

٢٣. كانت المرأة في ذلك الزمن، ألعوبة بيد الرجل، تباع وتُشرى كبيع السلع. وكان طالع المرأة المسكينة، منوطا بكلمة صغيرة، تخرج من فم الرجل الظالم. حتى أنَّا شاهدنا من خلال الأمثلة العديدة، التي ذكرها لنا تاريخ تلك الأزمان، أن غضبة تستولي على الرجل، قد تؤدي لخروج المرأة من البيت. وكثيرا ما ذهبت سعادة المئات والألوف من الأسر، على هذا النمط، أدراج الرياح.

٢٤. بلغ من امتهانهم للمرأة، أنهم كانوا يرغمونها على العيش والبقاء بين جدران البيت الأربعة؛ ويحرمون عليها تعلم العلوم، وحضور المجالس والحفلات، وسماع الخطب، ومشاطرة الرجل في جميع أطوار الحياة. وكانوا يعتقدون،

أنها إذا جنحت إلى طرق هذه الأبواب المنكرة (في عرفهم!) لا بد وأن تحيد يوما ما عن مناهج الحق، والرشاد؛ وتميل إلى سبل الغواية، والضلال. وقد أدت هذه العقيدة الفاسدة إلى انحطاط التربية، وفساد أخلاق قسم كبير من المجتمع الإنساني، في ذلك الحين.

٢٥. كانوا يتظاهرون بالعفة الكاذبة. ويخنقون بأيديهم تلك القوة الهائلة، التي غرستها الطبيعة في أجسامهم.

٢٦. إذا طُلِبَت الفتاة من أبيها للزواج، فأول ما تتساءل عنه أسرة الفتاة الخطوبة (نسب الشاب وثروته). وأما ما دون ذلك فهو معدود في نظرهم، من الأمور الفرعية التي لا يعبأ بها. فلا أدب الشاب وذكاؤه، ولا جده ونشاطه، ولا حسن معاشرته وسلوكه، حتى ولا قده وجماله، نعم! ما كان شيء من هذه الصفات، ليستطيع أن يرفع قدر الخاطب في نظر أسرة الفتاة المخطوبة! فإما النسب أو المال! وإلا فإن دون ما يبتغيه ذلك المسكين خرط القتاد.

٢٧. قام أحد علماء الاجتماع، في ذلك العصر، وأبان للناس حقوق المرأة المهضومة، ثم أشار إلى مضار الحجاب؛ فقاموا لقوله هذا وقعدوا، وحنقوا على قائله وسخطوا؛ ولم ينج ذلك المسكين من شرهم، إلا عندما ولى وجهه شطر الغرب، وامتطى غارب الرحيل والفرار. ثم قام رجل آخر من رجالهم، ومنح النساء حق الاشتراك في انتخابات المخترة، فخنقوا عليه وسلقوه بألسنة حداد.

٢٨. إذا أماطوا اللثام عن زان وزانية، فاللوم كل اللوم يقع على الزانية. فكانت تطلق، وتطرد من البيت، أو تحرم من الإرث. وبعبارة أفصح كانت تقاسي ضروب العذاب. وأما الفتى الذي أغواها، وهتك عرضها، من بعد أن زين لها الحياة بكلمات ذهبية، فلا أحد يلومه على جنايته الشنعاء. بل قد يجدونه، بعد اقترافه ذلك العار بساعة أو يوم، يسرح ويمرح في الأزقة والشوارع، ويلج النوادي والمجتمعات، ويزور الأقارب والخلان، كأنه لم يأت عملا منكرا.

٢٩. إذا اغتالت يد المنون ركنا من أركان الأسرة الواحدة، فمصيبة تلك الأسرة المسكينة، تكون مضاعفة في ذلك الحين. إذ إنها كانت ترغم، بحكم العادة، على إقامة الولائم ونصب موائد الطعام للمئات من الناس، حتى ولو كان الميت فقيرا معدما.

٣٠. كانت لهم قوانين وسنن وشرائع. إلا أنهم كانوا يلعبون بتلك الشرائع والسنن والقوانين، لعب الطفل بالأكر. ولا بد للحيرة من أن تسود دماغ الواحد منا، نحن أبناء العصر الحاضر، عندما يتصفح الجرائد والمجلات، أو الكتب التي خاضت عباب هذا البحث الخطير، في تلك الأزمان الغابرة، ويرى كيف أنهم كانوا يفسرون الكلام، ويوضحون مغازيه وتعابيره، فيحللون ما حرم، ويحرمون ما حلل، وفقا لأهوائهم وأغراضهم، غير ناظرين للصالح العام، أو حاجات الزمن والبيئة، أو تقاليد الأمم، أو دواعي النشوء والارتقاء.

٣١. كانوا يهرقون دماء بعضهم بعضا، في سبيل المال والأنانية.

٣٢. كان الجار يبغض جاره، لمجرد اختلاف العقيدة الدينية. وكثيرا ما نشبت، بين طوائف الشعب الواحد، حروب دموية، وأريقت دماء بشرية بريئة، من جراء هذه الأمور التافهة.

٣٣. كانوا يرتابون ممن يتبحر في أمور الدين. ويحسبون السعي للوقوف على كنه الاشياء الغامضة منه، مبدأ (والعياذ بالله) الكفر والضلال.

٣٤. كانت الخرافات، والعقائد الباطلة، التي لا تستند على عقل ومنطق، تجد بين أبناء ذلك العصر آذانا صاغية، وعقولا واعية، وأفئدة راضية، لا يجدها المنطق، ولا الفن، ولا القوانين الطبيعية، حتى ولا الآلات الميكانيكية التي تراها العين، وتلمسها اليد، وتدار حركاتها حسبما جاء في العقل والكتاب. فنحن نسمع الآن مثلا، أنهم كانوا يعتقدون بوجود الغول، والعفريت، و.. و.. وغير ذلك من الأوهام التي لا أصل لها في عالم الوجود. ولو وقف بهم جهلهم عند هذا الحد، لرضينا. ولكنهم تفننوا في هذا الباب، فابتدعوا خرافات عديدة أخرى،

وألبسوها برد قشيبة، إلى أن أصبحوا هم أنفسهم يظنون، وبعض الظن إثم، أنها حقيقة لا ريب فيها.

٣٥. كانت الألسنة معقودة في ذلك العصر، والأفكار جامدة من وجهة الدين. فلو قام أحد أفراد ذلك الزمن الكئيب مثلا، وسأل عالما من علماء الدين: عن كيفية خلق سيدنا آدم من التراب، رماه أصحابه بالكفر قبل أخصامه؛ ولو اجترأ آخر على استفحاص أمر سيدنا سليمان الذي كان يخاطب الطيور في وكناتها، أو سيدنا إبراهيم الذي نجاه الله من النار، أو السيد المسيح الذي ولد من روح الله وكان يبرئ الأكمه والابرص ويحي الموتى وهي رميم؛ لقتلوه، ومزقوه شر مزق؛ ولو سعى ثالث لكشف الستار عن المسائل الدينية، التي لم تتخلص بعد من مهاوي الشك والظنون، بالرغم عن كر الايام والعصور، كالروح، والجنة والنار، والوحي، والعروج، والحساب؛ لرموه بالزندقة وقالوا عنه "إنه والله لمجنون".

***

لم ينته المقال بعد. ولكني ما استطعت أن أثابر على قراءته أكثر من ذلك، لكثرة ما جاء فيه من الأفكار والانتقادات التي أخذت تتلقفني من المشرق إلى المغرب، فكنت أراني تارة واقفا على جبل عال، وطورا أتدحرج في هوة عميقة؛ آونة أفرح، وأخرى أغضب؛ مرة يقشعر بدني، وأخرى أتمسك بأهداب الرجاء. إلى أن وصلت إلى البند الأخير الخامس والثلاثين، وقرأت ما فيه، فأيقنت أن الكاتب ولا ريب من الملحدين. عندها رميت الكتاب من يدي، وقلت في نفسي:

سحقا لأهل هذه البلاد، وتعسا لأولياء أمورهم. كيف يتيحون لكاتب زنديق كهذا، أن يطرق باب هذا البحث الخطير؛ ويفوه بمثل هذه الترهات والأكاذيب؟ غفرانك اللهم! ماذا قرأت؟ لم يدع الكاتب بحثا إلا وخاضه: جنة، جهنم، إرادة، طبيعة، علم، فكر، فن، منطق، إلحاد، تعصب، عادة، حجاب، حب، زواج، نسب، غنى، طلاق، زنا، حياة، وطن، دين، عفة، حياء، كذب، ظل، رياء، روح، وحي، غيب، عروج، مادة، قوة، تفسير، قانون، شريعة، الله، قدر، تدبير، انتظام، تربية، مبدأ، خرافات، ترهات، وغير ذلك من المسائل، التي يحار إزاءها العقل، ويقف عندها الإدراك! فغفرانك

اللهم ربي غفرانك! تعالى قدرك وجل شأنك؟ وأشهد أنك منزه عن جميع ما ألصقه بك الجاهلون! ولكن ترى كيف اجترأ الكاتب على تسطير هذا المقال؟ وهل اعترى أدمغة العرب جنون، حتى أصبحوا لا يبالون أرضي عنهم ربهم، أم أنزل عليهم آيات سخطه وغضبه؟

وفيما كنت أفكر بذلك، وأنا على درجة قصوى من الحدة والغضب، سمعت صوت هاتف يناديني:

- "أنا الطير، الذي أتى بك إلى هذه الديار. ألا تود، أن أطوف بك الأحياء الأخرى؟".
- "هذا ما أريد!"
- "إذن هيا اخرج من هذا المكان!".

فأجبت نداء الهاتف، وخرجت من تلك الردهة جذلا؟ لأني نجوت بفضله من مخالب الريب والظنون، التي أخذت تنهش فؤادي، وتخدش ذهني ودماغي مذ قرأت تلك الكلمات الهائلة.

***

شرع الطير يسير أمامي، وأنا أقفو أثره. فكان هو كلما مررنا بصرح عال، أو قصر شامخ، أو مدرسة راقية، أو معرض فني، أو متحف صناعي، أو مصنع كيماوي، أو معهد علمي؛ يوضح لي سبب إنشاء ذلك المعهد، وزمن تشييده، والقائمين بذلك الأمر الخطير، والمشروع العظيم. وما طرحت على صاحبي سؤالا إلا وأجابني عنه:

- قلت: كنت أرى على واجهات الحوانيت والمخازن لوحات كُتِبَ عليها أسماء أصحابها بالأحرف الأجنبية. فاين هي؟ ولماذا لا أراها؟
- قال: هذه أصبحت في خبر كان. فلقد حرمت الحكومة العربية كتابة هذه اللوحات بأحرف غير الأحرف العربية. إذ إن اللغة العربية هي لغة البلاد كلها من أقصاها إلى أقصاها: لغة العلم والسياسة والاقتصاد والتجارة، لغة الصحف والمجلات، لغة التخابر والتخاطب حتى بين الرعايا الذين ينتمون إلى الأمم والشعوب الاخرى.
- قلت: وما هذه الأبنية التي أراها في الجانب الأيسر من الساحة العامة؟

- قال: هذه مدرسة للأيتام. وتلك للعميان. والثالثة زراعية. والرابعة تجارية. والخامسة صناعية. والأبنية التي في الصف الخلفي أقيمت لتعليم الطب، والصيدلة، والهندسة، والبيطرة، وما إلى ذلك من فروع الجامعة.
- قلت: وهل هناك مدارس لتعليم الأميين من التجار والمتقدمين في السن من أبناء البلاد، القراءة والكتابة؟
- قال: لا. إذ ليس في البلاد العربية كلها رجل أمي واحد. وهي على هذا الحال منذ خمسة أجيال أو يزيد.
- قلت: وهل العرب أحرار في وضع مناهج التعليم في مدارسهم؟
- قال: نعم. إنهم يضعون مناهج التعليم في مدارسهم كما يشاؤون، ذلك لأنهم اليوم أحرار مستقلون. وهذا هو السر في التقدم العجيب الذي تراه في البلاد العربية، والخطوات الشاسعة التي خطاها العرب في سبيل التمدن والعمران.
- قلت: وما هذه؟

- قال: إنها (عيادات خارجية) لمعالجة المرضى. يرد إليها مئات من أبناء المدينة والقرى المجاورة في كل يوم. فيتداوون ويرجعون إلى منازلهم من غير أجر ولا عوض.
- قلت: وهل منها كثير؟
- قال: نعم. في كل حي من أحياء المدينة، وفي كل قرية، عيادة كهذه. هذا عدا المستشفيات المنتشرة في كل مكان، والتي لا تتقاضى فلسا من أي إنسان.
- قلت: وكم يتقاضى الطبيب من أجر في هذه الأيام إذا ما عاد مريضا في منزله؟
- قال: إنه لا يتقاضى أجره من المريض. بل يتقاضاه من صندوق الأمة. إنه يتقاضى أجرا معينا في كل شهر لقاء أعماله كلها وهذا الأجر ضخم بدرجة تجعل الأطباء في غني عن التزاحم والتسابق. وعلى هذا المنوال ترى الفقير يعالج بنفس الاهتمام الذي يعالج به الغني من غير فرق ولا تمييز.
- قلت: إني لا أرى حمامات عمومية، ولا حلاقين.
- قال: ليس في البلاد حمامات عمومية، وإنما هنالك حمام في كل منزل من منازل المدينة. وأما الحلاقون فلا أثر لهم في

البلاد، إذ إن كل شخص يزين لحيته ويقص شعره بيده كما يشاء.

- قلت: إني أرى الناس كلهم يلبسون لباسا من قماش واحد، وجنس واحد، ولون واحد، حتى وزي واحد.
- قال: نعم يرغب العرب كل الرغبة في أن يكون لباسهم واحدا في جميع أقطارهم: في الجنس واللون والزي وفي كل شيء.
- قلت: وما هذه الأكشاك الصغيرة الجميلة التي أراها كلما مررنا بعطفة أو سرنا مسافة صغيرة في الشارع؟
- قال: إنها (مباول) أنشئت على الطراز الحديث طبقا لطلبات الفن. فإنك لا ترى اليوم منظرا كئيبا كالمنظر الذي حدثنا عنه الكتاب والمؤلفون من قبل: رجل متكئ على الحائط بجانب زاوية من زوايا الشارع، يبول؟ وسيدة تمر من جانبه وهو على هذا الوضع البشع؟
- قلت: وهل فيها مجرى للأقذار؟
- قال (وعلامة الاستهزاء والسخرية بادية على وجهه): مجرى للأقذار! هذا تم منذ قرون، إذ لا غنى عنه. إن في المدينة

مجرى أنشأته يد القدرة البشرية على أحدث شكل وأتم نظام.

- قلت: وما هذه البقعة التي أراها نظيفة ومنسقة تنسيقا جميلا؟
- قال: إنها مقبرة المدينة.
- قلت: وماذا فعلوا بالمقابر القديمة؟
- قال: إنها اندثرت. كانت على جانب عظيم من القذارة والفوضى. وكان الناس يدفنون فيها موتاهم كما شاؤوا وشاءت أهواؤهم. وكثيرا ما كانوا يبولون بين القبور ويتغوطون. وكثيرا ما كانوا يلعبون القمار فيها. فانتبه الناس لهذه الفوضى، وانتبه أولو الأمر من رجال الأوقاف، فأصلحوا ما فسد. ومنعوا بادئ بدء الدفن في المقابر القديمة. واشتروا قطعة من الأرض جديدة خصصوها للمدافن. فأحاطوها بالأسوار، وقسموها إلى بقع متساوية، يفصل الواحدة منها عن الأخرى شارع. وغرسوا في شوارع المقبرة، وحول سورها الأشجار، وجعلوا الدفن تابعة لنظام. وعهدوا بتنفيذ هذا

النظام إلى لجنة أسموها (لجنة المقابر). وهي مؤلفة من رجال يمثلون المصالح المختلفة: كالوقف، والصحة، والبلدية.

- قلت: وماذا فعلوا بأراضي المقابر المندثرة؟
- قال: قسموها إلى قسائم مختلفة باعوها إلى من شاء البناء، وبنوا فوقها بالفعل البنايات الضخمة، والعارات الجميلة، والفنادق الواسعة. ولما كانت هذه في وسط المدينة، فقد عادت على الناس بالربع الجزيل. بالملايين من الجنيهات. فتمكنوا من إنشاء جامعة من أضخم جامعات العالم على الطراز الحديث، ومستشفيات المداواة الفقراء قل أن تجد مثلها فوق هذه الكرة الأرضية.
- قلت: وهل يعتني العرب برياضة الأبدان في هذه الأيام؟
- قال: طبعا لأنها من متممات هذه الحياة. أولم يأت في الحديث النبوي الصحيح: صحة الأبدان قبل صحة الأديان.
- قلت: وأي نوع من أنواع الرياضة أحب إليهم وأشهى إلى قلوبهم؟
- قال: جميع أنواعها. ولكن لكل بلد نوعا خاصا منها يهتم به أكثر من الآخر. فبينما ترى (السباحة) مثلا (وسباق الزوارق

أحب أنواع الرياضة للعرب الذين يعيشون في المدن الساحلية، ترى (ركب الخيل) و(التنس) و(كرة القدم) أكثرها انتشارا في المدن الجبلية. هذه طبعا بالإضافة إلى الجولف، واللعب بالسيف والترس، وما إلى ذلك من الرياضات. وأما الصيد والقنص حدث عنها ولا حرج. إنك تكاد لا تجد في يومنا هذا عربيا واحدا، غير مكترث بنوع من أنواع الصيد المعروفة فوق هذه الكرة الأرضية.

- قلت: وأي نوع من أنواع المشروبات الروحية يستعمل العرب في هذه الأيام؟
- قال: إنهم لا يستعملون أي نوع من أنواع المشروبات الروحية؛ لأنهم اختبروا أضرار هذه المشروبات خبرة علمية، فأيقنوا أن ضررها أكثر من نفعها؛ ولهذا حرموها.
- قلت: والقمار؟
- قال: وهذا أيضا لا أثر له في البلاد العربية؛ لأن العرب رأوا بأم أعينهم الأضرار الجسيمة التي تلحق بالمقامرين فحرموه.
- قلت: وإلى أين يؤدي هذا الشارع الرحب؟

- قال: إلى فندق ضخم أقيم على رأس الجبل، يرتاده المصطافون من جميع أنحاء العالم.
- قلت: وهل تعتبر جزيرة العرب مصيفا مقبولا في هذه الأيام؟
- قال: نعم. إنها ليست مصيفا حسب، بل أستطيع أن أجزم بأنها من أجمل المصايف وأحسن المشاتي في العالم. فيها الفنادق الضخمة، والطرق المعبدة، والحدائق الغناء، ووسائل اللعب واللهو والرياضة بجميع أنواعها، وفي كل مكان.
- قلت: إن هذا العمران وهذه الإصلاحات تحتاج إلى مبالغ وفيرة من المال. فمن أين أتى العرب بهذه المبالغ؟
- قال: عن طريق التضحية، عن طريق الإعانات والتبرعات، عن طريق الضرائب، عن طريق الاقتصاد والتوفير، عن طريق العدول عن كثير من العادات السقيمة، عن طريق بيع المقابر القديمة التي أصبحت في وسط المدينة واتخاذها أرضا للبناء، عن طريق توفير الألوف والملايين من الأكباش التي كانوا يضحونها في ظروف مختلفة، والتي كانوا يهدرون دماءها، دون أن يستفيدوا منها الاستفادة المرجوة.

إذ أفتى فطاحل الدين مبررين العدول عن هذه الضحايا لقاء مبالغ يتبرع بها معتزم التضحية للمشاريع الخيرية والمصالح العامة. فتمكن العرب بهذه الوسيلة، من إنشاء جامعات علمية عديدة، ومستشفيات إنسانية لا تحصى.

- قلت: وكيف حال القرى في هذه الأيام؟
- قال: إنها في أهنأ حال وأنعم بال. نظيفة بكل ما في كلمة (النظافة) من معنى. ومنسقة تنسيقا جميلا: في كل بيت مرحاض، وفي كل شارع مبولة. والمباول العامة والمراحيض الخاصة مرتبطة بمجرى البلد. في كل حي صهريج يستقي منه العطشان. وفي القرية كلها فرن واحد يخبز فيه أهل القرية خبزهم؛ ذلك لأن (الطوابين) المتعددة، التي كنا نسمع بوجودها في كل بيت من بيوت القرية، كانت تأخذ كثيراً من وقت الفلاحين ووقودهم وأموالهم وجهودهم. ثم إنه يوجد في كل قرية (مطحنة) واحدة بدلا من عدة مطاحن. في كل قرية حديقة، وبستان للأطفال، وفي كل قرية مدرسة ثانوية، وفي المدرسة شعب متعددة لتعليم فروع الزراعة. وقد تألفت في كل قرية شركة تعاونية ومجلس قروي لترقية شؤون أهل

القرية من الوجهات العلمية والزراعية والتجارية والاقتصادية والاجتماعية. وقد قطع أهل القرى عن هذه الطريق شوطا بعيدا في ميادين الرقي والعمران فازدادت منتجاتهم، وتحسنت معيشتهم، وانتظمت أحوالهم. وازدادت الثقة بهم فلم يعودوا يرتادون المدن كلهم معا كما كانوا يفعلون. بل أنابوا عنهم لجنة لتجمع حاصلاتهم وتحملها إلى المدن فتصرفها بالنيابة عنهم، ثم توزع عليهم في آخر الشهر أرباحهم بعد أن تخصم منها نفقات الجمع والنقل والتصريف. وعلى هذا المنوال وفروا على أنفسهم كثيرا من الوقت والجهد والنفقات. وأنفقوا ما وفروه من هذه الناحية في سبيل ترقية شؤونهم الاجتماعية الأخرى. ولهذا لا ترى في القرى العربية ذلك البؤس الذي كان مخيما عليها في العهود الغابرة.

- قلت: وهل لا يزال الفلاحون يقتتلون من أجل (المخترة)؟ وينفقون في سبيل الحصول عليها المبالغ الجسام؟
- قال: كلا. بل إن (المخترة) في القرى كالرياسة في المدن. إن الحكومة لتجد صعوبات جمة في إقناع الناس كي يتولوا هذا

المنصب. وكثيرا ما يبقى هذا المنصب شاغرا لعدة شهور قبل أن تتمكن الحكومة من إقناع رجل من رجال القرية الأخيار كي يتولاه.

- قلت: إذن لا يرغب الفلاحون أيضا في تولي منصب (المخترة)؟
- قال: أجل. إنهم لا يرغبون في تولي هذا المنصب فهم لا يتناحرون من أجله، ولا يرشون الحكام في سبيل الحصول عليه كما كانوا يفعلون.
- ويسرني بهذه المناسبة أن أخبرك أن (الرشوة)، تلك العادة البذيئة قد انعدمت بالمرة من جميع أنحاء البلاد العربية. فصاحب الحق يستطيع أن ينال حقه من غير أن يرشو الحكام والموظفين، ومن غير أن يوسط أحدًا من الوجهاء والأعيان. لأن (القانون) واضح وهو من وضع أيديهم. ولما وضعوه لاحظوا مصلحتهم ومصلحة بلادهم؛ ولذلك احترموه، وهو الآن معبودهم، يحكمونه أينما حلوا وحيثما ساروا.
- قلت: وكم المهر المألوف في هذه الأيام؟
- قال: مئة قرش بالتمام. لا زيادة ولا نقصان.

- قلت: وهل يستطيع المرء أن يتزوج من شاء من بنات الأسر الكريمة؟
- قال: ليس في يومنا هذا أسر كريمة، وأسر غير كريمة. وما عاد العرب يعبأون بالأصل والنسب والحسب كما كانوا يفعلون من قبل. إذ لا يرفع العروس أصله ولا نسبه ولا حسبه. بل يرفعه علمه، وأخلاقه؛ وترفعه درجة نفعه للناس. وأما الزواج فميزانه (الحب)، ولا ميزان له سوى الحب.

فإذا ما أحب العربي فتاة وفكر في الاقتران بها، أتى إليها بنفسه، وحدثها بما يكنه ضميره. فإذا أحبته وشعرت في قلبها بميل إليه أجابته إلى طلبه، وإلا اعتذرت بأدب وصراحة. وافترق الاثنان دون صخب أو ضجيج، ودون قيل وقال.

- قلت: وهل لا تزال عادة (تعدد الزوجات) مألوفة بين العرب؟
- قال: كلا. ألغيت هذه العادة فلم يبق لها أثر بين العرب بالمرة؟
- قلت: كيف اجترأوا على ذلك، وماذا فعلوا بأوامر الدين؟

ألم يأت في القرآن: يا أيها الذين آمنوا "انكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ"

قال: أجل. كل ذلك صحيح. ولكنه مقيد بما يشبه المستحيل بقوله تعالى: "فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً" الآية. وليس فيه ما يدل على الجبر، لقد سنت هذه القاعدة في وقت كان العرب في حاجة إليها؛ ولذلك لم يقدموا على إلغائها، وإنما هم وصلوا إلى درجة من سمو المبادئ والأخلاق لم يستغلوا معها هذه الإباحة. كما أن عدد الذكور والإناث في البلاد متعادل بدرجة لا تسمح بتعدد الزوجات حتى ولو ركنوا إليها.

- قلت: لم أفهم، ماذا تعني؟
- قال: إنني أعني أن عدد الذكور مساو لعدد الإناث على وجه التقريب.
- قلت: وكيف تم ذلك؟
- قال: إن العلوم الطبية وصلت إلى درجة من الرقي في العصور الأخيرة، أصبح باستطاعة المرء معها أن (يفبرك) الذكر والأنثى عند الجماع كما يشاء. وأن يعرف قبل الوضع، مع التأكيد

واليقين، فيما إذا كان الولد القادم ذكرًا أو أنثى. إن هذه الأمور لم تعد وليدة الآمال والمصادفات. بل أصبحت نتيجة التصميم والإصرار والإرادة واليقين.

- قلت: إذن لا بد أن تكون قوانين الوراثة أيضا قد اعتراها شيء من التغيير والتبديل؟
- قال: نعم. اعتراها الشيء الكثير من التغيير والتبديل وليس الشيء اليسير حسب. إنه لا فرق في يومنا هذا بين الذكر والأنثى من حيث الوراثة. إن المبدأ القائل إن للذكر مثل حظ الأنثيين أصبح الآن في خبر كان[1]. الذكر والأنثى في هذا العصر متساويان ليس في مسائل الوراثة حسب، بل وفي جميع الحقوق والواجبات.
- قلت: إني لا أرى صحيفة لا يومية ولا أسبوعية؟
- قال: ليس ثمة صحف إخبارية بالمرة. بل هناك مجلات أدبية فقط للشعر والقصص، وأما الصحف الإخبارية فقد اختفت؛ ذلك لأنه بات في مقدور الإنسان أن يتتبع الأخبار لا في كل

---

[1] هذا على التقسيم النظامي. وأما على الشرعي فمعمول به.

يوم أو في كل ساعة حسب، بل وفي كل لحظة. وأن يكون على اتصال بما يجري من الحوادث الكونية بواسطة (راديو الجيب) الذي يحمله في جيبه. أينما حل وحيثما سار، ويدير لولبه بأصبع يده وهو في داخل جيبه دون أن يراه أحد. فيسمع كل صوت، ويطلع على كل حديث، ويعلم كل ما يجري في أية ناحية من أنحاء هذه الكرة الأرضية.

- قلت: وهل ترقى علم الكهرباء واللاسلكي إلى هذا الحد؟
- قال: نعم، وإلى أبعد من هذا الحد. لقد تمكن علماء اللاسلكي من تمييز أصوات آبائنا الأقدمين، والأنبياء الأولين؛ تلك الأصوات التي لا تزال تدوي في الفضاء منذ قرون وأجيال دون أن تفنى أو تزول.
- قلت: وفي أي ناحية من نواحي العلوم الأخرى تمكنوا من الاستفادة من الكهرباء واللاسلكي؟
- قال: تمكنوا من الاتصال بالمريخ والكواكب السيارة الأخرى. وها هي ذي المخابرات متصلة بين أرضنا وتلك الكواكب السيارة. وها هم أولاء سكان تلك الكواكب يفدون إلينا في كل يوم زرافات ووحدانا بالطائرات التي تطير بقوة الكهرباء

واللاسلكي بأقصر من لمح البصر، كما أن سكان أرضنا هذه لا ينقطعون عن ارتياد تلك الكواكب بين كل آونة وأخرى.

ولقد تمكن الانسان من استخدام الراديوم في مكافحة الجراد والحشرات الأخرى. فإذا ما اكتسحت أسراب الجراد قطرا من الأقطار، سلطوا عليها أشعة الراديوم فأبادتها هذه في أقل من لمح البصر.

وكذلك قل عن الطاعون والسرطان والأمراض الفتاكة الأخرى، فإن هذه الأمراض التي كانت تفتك بالبشر فتكا ذريعا في القرون الماضية ضعفت تجاه سلطان الراديوم وانخذلت، ولم يعد لها ذلك التأثير القديم.

- قلت: إذن أصبح الإنسان مسيطرًا على الجو أيضا.
- قال: نعم. وسيطرته هذه لا تقبل الجدل، لقد أصبح باستطاعته أن يسيطر على الجو، وأن يكيف الطقس كما يشاء. فإذا سطا عليه الحر يوما كافحه بالآلات العجيبة التي اخترعها لصد تيار الحر؛ فأخضعه لسلطانه، وانقلب الحر إلى هواء عليل. وكذلك قل عن الصقيع والبرد.

والأغرب من هذا كله أن الإنسان سيطر على الجو من حيث المطر أيضا. فإذا انحبس المطر يوما أو بعض يوم، ورأى أن زرعه أضحى على وشك اليبوسة والتلف، قام بعملية كيميائية بسيطة دعامتها الكهرباء، تتكون على إثرها الغيوم، فيهطل المطر، وينتعش الزرع، ويزول الخطر؛ لهذا لم نعد نسمع بوقوع مجاعة في أية ناحية من أنحاء الكرة الأرضية منذ عدة قرون.

- قلت: وما هذه الجماهير المتجمهرة هناك؟
- قال: إنها اجتمعت لتحتج على أعمال الحكومة.
- قلت: وهل يتيح القانون التجمهر، والاجتماع، والخطابة، والاحتجاج؟
- قال: وهل عندك شك في ذلك؟ يخيل لي أنك جاهل كل الجهل بالحرية التامة التي صار إليها العرب في هذا العصر. إنهم أحرار بكل ما في كلمة (الحرية) من معنى، أحرار في جميع ميادين العمل: في السياسة والاقتصاد والتعليم والتربية، حتى وفي مسائل الدين. إنهم يجتمعون متى يشاءون وفي أي وقت يبتغون. ويخطبون في أي موضوع يعن على بالهم، ويتكلمون بالأسلوب الذي يرونه مناسبا، ولا

يخشون بأس أحد إذا ما أرادوا أن يعبروا عما في ضمائرهم، من أجل العقيدة؛ سواء أكانت هذه دينية أم سياسية أم اجتماعية. إذ لا سجن، ولا اعتقال، ولا نفي، ولا اضطهاد في هذه الأيام. فإذا كنت في شك من قولي هذا تعال معي واسمع.

فتبعت صاحبي، ودنوت من الجماهير المتجمهرة. فسمعت الخطباء يخطبون في شتى الموضوعات. فمنهم من انتقد مصلحة التعليم لأنها رفضت قبول اثنين من أبناء البلاد في إحدى مدارسها بحجة أنهما لم يسجلا اسميها في الوقت المضروب للتسجيل؛ ومنهم من لام مصلحة الزراعة لأنها لم تقم بتجارب كافية لمعرفة أنواع السماد النافع لزراعة الحقول؛ ومنهم من لام وزير الداخلية لأنه مكن رجلا أجنبيا من أن يشتري أرض رجل عربي؛ ومنهم من لام رئيس الحكومة نفسه لأنه أقام وليمة في قصره لعدد من رجال الحكم وأعيان البلاد بينما كان بإمكانه أن ينفق ما أنفقه من أجل تلك الوليمة في سبيل إطعام اليتامى والمساكين وأبناء السبيل؛ ومنهم من لام وزير المالية لأنه لم يستخدم عددا كافيا من الجباة لقبض الأموال الأميرية في حينها، تلك الأموال التي

يتسابق أفراد الشعب في سبيل دفعها؛ ومنهم من انتقد وزير الصحة لأنه لم يحقق التحقيق الكافي عن سبب موت رجل كان يداويه طبيب من أطبائه مع أن مرضه ما كان مميتا، ولماذا وجدوا بعوضة في حديقة مجاورة لإحدى مدارس البنات في المدينة؛ ومنهم من قام وطلب من الجمهور إسقاط الحكومة برمتها لأنها لم تعمل عملا مجديا في سبيل تنفيذ برنامجها الأساسي الذي وعدت به الأمة؛ ومنهم من قام وأنحى باللائمة على الوعاظ والمرشدين من رجال الدين لأنهم يكثرون من الخوض في بحوث دينية لا فائدة ترجى من ورائها، وكثيرا ما يستعملون من أجل ذلك أساليب لا يفهمها الجمهور.

ومع أنني كنت أرى بين المستمعين عدداً من رجال الشرطة، وآخر من رجال الدين؛ فإني لم أسمع لهم قولا ولا احتجاجا. وانفض المتجمهرون دون أن يحدث بينهم ضجيج، حتى ولا قيل وقال.

- قلت: سمعت بعض الخطباء يتكلمون بلغة عربية ركيكة بينما البعض الآخر تكلم بلغة عربية فصحى دون لحن أو ركاكة.

- قال: هذا مباح، ولا غضاضة فيه. من تعلم آداب اللغة خطب بالأسلوب الذي ترتضيه آدابها، ومن لم يتعلمها أباحوا له أن يلفظ الكلم كما يشاء. لأن اللغة (واسطة) للتفاهم، وليست غاية تُعيَد.

هذا وقد انتبه العرب في العصور الأخيرة إلى الصعاب التي تعتور طلاب اللغة العربية في طريقهم، فعملوا على إزالتها. وها هي ذي وصرفها ونحوها. وبإمكان المرء أن يتعلمها في بحر أيام قلائل، دون أن يصرف في سبيل ذلك السنين الطوال كما كانت الحال من قبل.

- قلت: وهل سمحوا للناس أن يفسروا الكتب السماوية وأن يتعمقوا في تفسيرها وفي تفهم آياتها؟
- قال: نعم. إن ذلك مباح في يومنا هذا، ومباح أيضا، أن ينتقد المرء ما يعثر عليه في بطون هذه الكتب من اشارات غامضة، وروايات غير منسجمة.
- قلت: ألا يقتلونه، أو يعذبونه، أو يزجونه في السجن على الأقل من أجل تساؤله هذا؟

- قال: لا. إن الزمن الذي كان المرء يقتل فيه ويعذب ويزج في أعماق السجون من أجل عقيدته الدينية مضى وانقضى.
- قلت: إذن ما هذه المشانق التي أراها منصوبة في وسط هذا الميدان؟
- قال: إنها ليست بمشانق حقيقية، وإنما هي مشانق صورية نصبت لتشهير أسماء الأشخاص الذين اقترفوا ذنبا من الذنوب التي تخالف عادات البلاد، أو إثما من الآثام التي يمجها الذوق السليم.

انظر مثلا: هذه مشنقة نصبت إيماءَ (لسوء السمعة) التي أصابت زيدا من الناس. وتلك هي مشنقة أخرى نصبت للتعريض بسوء الخطة التي سلكها عمرو. وهناك ثالثة ورابعة وخامسة وهكذا دواليك. وقد كتب على كل واحدة منها اسم صاحبها، والجريمة الاجتماعية التي اقترفها. لقد وجد رجال الدولة العربية وواضعو شرائعها أن ذلك، أي التشهير، خير لردع الناس عن غيهم، وأفضل في تهذيب أخلاقهم من الشنق والإعدام اللذين ألغيا في جميع البلاد

العربية. فلا شنق، ولا قتل، ولا إعدام. بل هناك إنذار، وتوبيخ، وتشهير، وحرمان.

- قلت: أيجوز لي أن أقترب من هذه المشانق وأن اقرأ ما عليها من أسماء وذنوب وآثام؟
- قال: لم لا؟ إنها لمثل هذا وضعت. فدنوت منها، وطفقت أتصفحها الواحدة تلو الأخرى: هذا رجل كذب، وذاك رجل أخلف الوعد، وهناك ثالث سرق مال غيره، ورابع قتل جاره، وخامس استغاب صديقه، وسادس غش قومه ولم يعمل بالقاعدة المعروفة: "من غشنا فليس منا".
- قلت: إني لم أعثر على رجل جوزي بسبب الزنا؟
- قال: الزناء وإن كان لا يزال يعد من الآثام الاجتماعية إلا أنهم اخترعوا لمكافحته طريقة غير الطرق التي ألفها الناس من قبل.
- قلت: والخيانة العظمى؟ خيانة الأمة والوطن؟ والتخلف عن نجدة البلاد؟ وصد الغارة؟ وردع الأعداء؟ ونقل أخبار الوطن وأنباء الوطن إلى أعدائه؟ أليست هذه كلها من الفعال

المكروهة التي يحاسب المرء من أجلها حسابا عسيرا، ويعاقب بسببها عقابا شديدا؟

- قال: اي والله! إن كل فعل من هذه الفعال ليعتبر جناية عظمى، وفاعله، يستحق أشد أنواع العقاب. ولكن لا يوجد بين العرب في يومنا هذا، ولله الحمد والمنة، من تحدثه نفسه ولو لبضع ثوان بالإقدام على مثل هذه الفعال، أو ارتكاب موبقة من هذه الموبقات. أجل يا عزيزي: إنه ليس بينهم في هذه الأيام من يقترف مثل هذا الإثم، لا عن خوف أو رهبة، وإنما عن عقيدة ويقين. إنهم أرفع من أن ينحطوا إلى مثل هذه الدركة من اللؤم والدناءة. ولقد حاولت دول الارض طرا أن تجد ولو شخصا واحدا بين العرب أن يكون جاسوسا لها، فينقل إليها الأخبار ويطلعها على مواطن الضعف والقوة من بلاده فلم تنجح أبدا. ولم يخرج على صفوف الأمة العربية، تلك الصفوف المتحدة المتراصة، سوى رجل واحد، وكان ذلك قبل ستين عاما أو يزيد. فعلم العرب بأمره، فذهبوا إليه، وبحثوا عن حقيقة حاله؛ فعلموا أن ذلك الجاسوس، وإن كان عربيا في مظهره ولباسه ولغته وتصرفاته، إلا أنه، في الحقيقة

ونفس الواقع، لم يكن سوى لقيط التقطه أحد ارباب الخير من سكان المدينة، وهو ذاهب إلى المسجد ليصلي صلاة الصبح، في يوم من أيام الصيف. فأخذه ورباه، وعلم بعدئذ أنه ابن زنا؛ عندها تنفس العرب الصعداء، وزال منهم العجب، وأيقنوا أن أخلاقهم العربية، ومفاخرهم القومية، لا تزال متينة، ولم يعترها أي ضعف أو وهن.

- قلت: من هو رئيس بلدية القدس في يومنا هذا؟
- قال: إن هذا المنصب لا يزال شاغرا منذ شهر أو يزيد.
- قلت: لماذا؟ ألم يجدوا رجلا كفؤا للقيام بأعباء هذا المنصب؟
- قال: هناك كثيرون جدا، أكفاء لتولي هذا المنصب، بل وأي منصب آخر أرفع منه. لكن العرب، ليسوا بميالين – في هذا العصر – للتزاحم والتنافر في سبيل هذه الكراسي. إنهم يؤثرون الحياة الحرة، على تولي مثل هذه المناصب. وها هي ذي الحكومة تبذل قصارى جهدها لإقناع الكثيرين من أبناء المدينة، لتولي هذا المنصب الشاغر، ولكنها عبثا تحاول.
- قلت: إني أحب أن أسافر إلى شرق الأردن ومنها إلى الحجاز. أترى يضع حرس الحدود العراقيل في طريقي؟

- قال: كلا، فلا حرس هناك، ولا حدود بين الأقطار العربية، ولا (جوازات السفر). إنه باستطاعة العربي، كائنا من كان، أن يسافر من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر دون أن يحمل معه أي نوع من الأوراق التي اخترعت فيما مضى للسيطرة على حركاته وسكناته. فلا ورقة هوية، ولا جواز سفر في هذه الأيام، ولا هم يحزنون. والتجارة حرة، والمرافئ والثغور مفتَّحة الأبواب.
- قلت: وهل إذا سافرت إلى هذه الأقطار أجد كتابا أو دليلا يدلني على عادات سكانها، وأخلاقهم، وقوانينهم، وأوزانهم، ومكاييلهم وما إلى ذلك من الأمور التي لا بد (لغريب) من أن يعرفها إذا ما أراد أن يهبط مصرا من الأمصار أو يهبط قطرا من الأقطار؟
- قال: كلا. إنك لا تحتاج إلى دليل كهذا إذا ما أردت أن تتجول في أية ناحية من أنحاء البلاد العربية. إذ إنها كلها وحدة لا تتجزأ هنا، وهناك: فاللباس، والأكل، والأخلاق، والعادات والأنظمة، والقوانين، حتى والمكاييل والأوزان والمقاييس واحدة في فلسطين وشرق الأردن وسوريا والعراق ومصر

والحجاز وطرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش وحضرموت والكويت واليمن والبحرين وفي كل مكان. والعربي لا يعتبر غريبا إذا ما حل في أي قطر من هذه الأقطار.

- قلت: وكيف السبيل إلى السفر إلى تلك الأصقاع: أيسافرون إليها على ظهور الخيل أو الإبل، أو بمركبات تجرها الخيل، أو بدراجات نارية، أو بقطارات حديدية، أو بسيارات؟
- قال: لا هذا، ولا ذاك. وإنما هنالك طيارات يستطيع المرء أن يطير بها من بيته، يحركها بيده؛ فلا قائد ولا مطار ولا وقود ولا هم يحزنون.
- قلت: سمعت الناس يقولون: غدا رمضان.
- قال: نعم، غدا يبدأ شهر الصيام.
- قلت: كيف عرفتم ذلك؟ ولم يأتكم بعد من يشهد أنه رأى الهلال.
- قال: حدثتنا المراصد الجوية التي تستند على الحسابات والأرقام أن الهلال لا بد أن يولد في الوقت الفلاني من اليوم الفلاني من الشهر. أجل، كان المسلمون في كل سنة وفي كل

بلد من بلاد العالم الإسلامي يشغلون أنفسهم في سبيل رؤية الهلال، وإثباته، وإعلان ثبوته بين الملأ. وكانت أسلاك البرق والهاتف تهتز ساعات طوالا في كل مرة. وكانت الأفكار دوما مبلبلة والأدمغة حائرة. والناس من كل صوب يتساءلون؟ هل ثبت رمضان؟ وكذلك كانت الحال في العيد. فكانت أوقات المسلمين وجهودهم على هذه الحال تضيع سدى. قطر يصوم في يوم السبت. وآخر في اليوم الذي قبله، أو اليوم الذي بعده.

فانتبه المسلمون لهذا الأمر. واستفادوا من العلم الصحيح: علم الأفلاك والنجوم، واستخدموا المراصد، وحسبوا، ثم استصدروا الفتاوى، ورسموا برامجهم لمئات من السنين من بعدهم، فأصبح الآن بإمكان الواحد منهم أن يعرف متى يقع اليوم الأول من شهر رمضان، وكذلك العيد، لا في هذه السنة أو السنة القادمة حسب، بل وفي السنين القادمة كلها على مر العصور.

- قلت: وماذا فعلوا بالجامدين منهم والرجعيين؟

- قال: لقد ذهب هؤلاء كلهم، ولم يبق واحد منهم، عليهم رحمة ربهم.
- قلت: إذا مات إمام من أئمة المساجد، أو قضى نحبه خطيب من خطبائها أفلا يندبون أولادهم من بعدهم للإمامة والخطابة؟
- قال: معاذ الله، لا وراثة في هذا العصر: لا في الإمامة، ولا في الخطابة، حتى ولا في كرسي الملك والسلطنة، ولا يتولى الأمر إلا من كان كفئا له، وقدر على القيام بأعبائه. والمقام الأول في هذه الأيام للعلم والثقافة، لا للأصل والنسب والقربى.
- قلت: وما هذا البناء الفخم، وهذه القبة الخضراء التي تراها أمامنا؟
- قال: إنه الجامع الكبير الذي يؤمه الناس للصلاة. وتلك هي قبته، فهام بنا إليه الآن؛ لأن صلاة الجمعة قد حانت، ثم حدثني عن أساليب العبادة المتبعة في المساجد أحاديث لم أفقهها بالتمام، ثم مشى أمامي، فتبعته، ولما وصلنا الجامع وجدت أن كل ما قاله لي صاحبي هو الواقع. ورأيت بأم عيني، كيف أن الناس دخلوا الجامع زرافات ووحدانا، وصلوا

على الطريقة التي وصفها صاحبنا، فاستغربت الأمر، وزاد استغرابي عندما اعتلى الخطيب المنبر المنصوب في وسط الجامع، لافي صدره، وكانت أمامه آلة عجيبة تذيع الصوت جهورا ليتمكن الناس كلهم من استيعاب خطابه. وأخذ يعظ الناس بأسلوب غير الأسلوب الذي اعتادت أذني سماعه في الجوامع يوم الجمعة. رباه ماذا أرى؟ وماذا أسمع؟ لقد اكتفى الخطيب بأن بدأ خطبته بحمد الله والصلاة على نبيه؛ ثم انتقل فورا إلى معالجة الشؤون اليومية والموضوعات الاجتماعية.

فبحث لهم عن الأخبار اليومية، والسياسة الدولية. وعن أسعار الخضار واللحوم، وعن أسعار الحاجات اليومية، وعن العوامل التجارية المسيطرة على هذه الأسعار. ثم بحث عن المدارس، ومناهج التعليم، وعن ضرورة تعلم الأبناء والأمهات. واستعرض حوادث الأسبوع فأشار إلى حادثة استنبط منها بعض الدروس والعبر التي تنفع المصلين. وانتقد بعض أعمال أولي الأمر وتصرفاتهم التي لا تتناسب مع مصلحة الجمهور، ومصلحة البلاد بوجه عام. وحض الناس على الاشتراك في

جمعية خيرية ألفها لفيف من أهل البر والإحسان. وأشار إلى الخطر الذي يرتقبه العقلاء من جراء نقص المواليد، وازدياد نسبة الوفيات في ناحية من نواحي البلاد. ثم بحث عن حياة العمال وشروط استخدامهم وأجورهم وساعات العمل في مختلف المناجم والمعامل، وعن الصلات التي تربط العمال بالمستخدمين من أصحاب المصانع ورؤوس الأموال. ثم انتقل إلى الطرق الحديثة في تربية الأطفال، وضرورة الإكثار من بساتين الأطفال والمدارس الأولية. ومدارس الإناث ومناهج التعليم والتربية فيها. ثم بحث عن أحدث الطرق الزراعية للإكثار من الإنتاج، وتصريف الحاصلات، وانتقاء البذور. ثم بحث عن شروط الزواج، والمهور وما إلى ذلك من الأمور.

فانتابني شعور عميق ممزوج بشيء من السرور والاستغراب. سررت؛ لأن الخطيب طرق موضوعات اجتماعية مختلفة، بعضها أنفع من بعض. واستغربت؛ لأن ذلك كان أول عهدي بمثل هذه البحوث في خطبة الجمعة. وقد كان الخطباء – على ما أذكر – ألا يبحثون إلا عن الجنة والجحيم وعن عذاب الدنيا وثواب الآخرة. وما إلى ذلك من الأمور الدينية البحتة.

- فسألت صاحبي: هل كان الخطيب من درجة الخطباء الذين عرفناهم في الأزمنة الفائتة؟
- قال: لا، إنه من متخرجي كلية العلوم والآداب في الجامعة العربية الكبرى في فلسطين. ولا يتاح لأحد أن يعتلي منبر الخطابة في هذا العصر إلا إذا كان من متخرجي هذه الكلية. وقد حظرت الحكومة العربية على المرء أن يتعمم أو يرتدي الجبة أو يتظاهر بالانتساب للعلوم الدينية إلا إذا حصل على (شهادة) خطية من لجنة مؤلفة من كبار رجال العلم والدين. وهؤلاء لا يمنحون هذا الشرف إلا لمن قضى سنوات معدودات في الكلية المتقدم ذكرها، واجتاز الفحص المخصص لذلك.
- قلت: ألا يحق لولده أن يتولى الخطابة بعد وفاته؟
- قال: معاذ الله. إلا إذا كان الابن مثقفا. وكان قد اجتاز درجات التعليم المتقدم ذكرها، واجتاز الفحص المخصص لذلك.

وفيما كنا نتبادل الحديث في هذا الموضوع سمعت صوت رجل ينادي الناس لاستماع قصة (المولد النبوي). فانتحينا ناحية في

الجامع وجلسنا على مقاعد خصصت لهذه الغاية. فاعتلى المنصة شاب مثقف - قيل لي إنه من متخرجي الكلية نفسها - وأخذ يسرد تاريخ حياة النبي محمد بلسان عربي فصيح. فذكر نسبه من أوله إلى آخره. وذكر التاريخ والمكان الذي ولد فيه. وذكر حالة أمه وأبيه المالية، وموقفها الاجتماعي. وذكر حالة مكة وقريش بوجه خاص والعرب بوجه عام قبل نزول الوحي عليه. وذكر المبادئ التي نادى بها محمد. تلك المبادئ التي غيرت من عقلية العرب، وأفكارهم، ومبادئهم؛ وأخرجتهم من الظلمات إلى النور. ثم ذكر العقبات التي اعتورت محمدا في طريقه منذ نادى بنشر الرسالة المحمدية إلى أن توفاه الله. وذكر الصفات الحميدة والمبادئ الخلقية الفذة التي تمسك بها محمد أثناء كفاحه إلى أن نجح، واستنبط من حياة الرسول كثيرا من العبر.

فكنت ترى الناس يصغون إلى (المولد النبوي) وكأن على رأسهم الطير: لا صراخ ولا ضجيج، ولا خرافات ولا أباطيل، ولا شعوذة ولا تدجيل.

فاستغربت الأمر، وسألت صاحبي لماذا لم يذكر الخطيب شيئا عن حمل آمنة وعن جدران البيت التي انشقت، وعن نسوة آدم وشيث وإبراهيم والنبيين اللواتي شققن الجدار وجئن يبشرنها بقدوم خير الرسل، وعن تسبيح الملائكة في بطن أمه، وعن الأعلام التي ارتفعت في المشرق والمغرب قبل ولادته، وعن ولادته عليه الصلاة والسلام، وعن خده الأحمر ووجهه الجميل وقده المياس ونوره الساطع، و.. و.. وما إلى ذلك من كلمات المدح وقصائد الإطراء والتقديس التي كان القراء يكررونها كلما نودوا لقراءة المولد النبوي الشريف.

وما زلنا على تلك الحالة نجوب الشوارع، ونغشى المسارح، نطرق النوادي، ونرمق الغواني، نترسم الآثار، ونتنسم الأخبار، إلى أن رمتنا يد المصادفة أمام حديقة غناء، خلناها روضة من رياض النعيم.

ترى أيليق بنا أن نمر بهذه البقعة الطيبة، دون أن نلج بابها، ونسرح الطرف في أكنافها، وقد قذفتنا إليها لجة الأقدار؛ لترينا ما أوجدته يد القدرة البشرية في وسط تلك المدينة الزاهية، وما أتت

به قريحة الإنسان من البدائع والمبتكرات، في وسط تلك البيئة التي كانت تضرب بانحطاطها الأمثال.

فلست بذاكر هنا تلك المناظر البديعة التي كانت تبهر أبصارنا، كلما خطونا خطوة في صحن تلك الروضة الغناء، ولا بمجترئ على وصف تلك الأشجار وحفيفها، أو الزهور وابتساماتها، أو المياه وغديرها، أو الطيور وتغريدها، إذ إني لو أقدمت على ذلك لخانتني القريحة، وعصاني اليراع، ولرجعت قبل أن أبلغ أمنيتي بخفي حنين.

ومع هذا، فلا بد لي من ذكر شيء يستغربه كل منا، نحن معشر العرب، إذا سمعنا به؛ فكيف بنا إذا رأيناه بأعيننا. وهو أنَّا كنا كلما خطونا بضع خطوات، نشاهد نصب أعيننا تمثالا مصنوعة من النحاس، أو الفولاذ، أو الألومنيوم، وغير ذلك من المعادن الصالحة لصنع التماثيل. فراعني هذا المنظر، وسطت عليّ غياهب الحيرة والاستغراب، فأسرعت لرائدي - ولا ريب فهو حلال المعضلات - وقلت له منذهلا:

- أولم يكن التصوير ورفع التماثيل من الأمور التي نهانا الدين عنها؟
- قال: كلا! ومن أنبأك بذلك؟ أيوجد في بطون الكتب المقدسة، أو بين أسطر الشرائع السماوية آية بينة، أو حجة دامغة تدل على حرمانية هذه الأشياء؟ كلا! إن أبناء العصور السالفة لو أمعنوا النظر في الفوائد الجمة، التي تنجم عن مثل هذه المشاريع، لما تمسكوا زمنا طويلا بتلك الأفكار، التي كانت مسيطرة على عقولهم. إذ إنهم كانوا يعتقدون أن التصوير ونصب الهياكل والتماثيل، أمر يقود الإنسان (والعياذ بالله) إلى الكفر والضلال.

خليق بأمة راقية، كالأمة العربية، أن تعترف بفضل رجالها. انظر أن هذه التماثيل التي تراها منتصبة أمامك، تمثل رجال الأمة العربية الذين نبغوا في كل علم، ومهروا في كل فن، فامتازوا عن أترابهم المعاصرين.

دنوت من التماثيل، وجعلت اقرأ اسم كل واحد منها على حدة، لم يبق في خاطري من جميع تلك الأسماء إلا النذر اليسير.

وأما الأسماء الأخرى؛ فإما أن يكون قد صعب عليّ قراءتها وتمييزها، أو أن تكون قد غابت عن ذهني، لشدة ما اعتراني من الذهول في ذلك الحين.

وإني لأذكر الآن، أني قرأت بين أسماء الشعراء الذين كان لهم الفضل في حفظ اللغة، وأساليب البيان، من أقدم عصورهم حتى الآن. فمنهم: امرؤ القيس، زهير بن أبي سلمى، النابغة الذبياني، حسان بن ثابت، كعب بن زهير، النابغة الجعدي، الفرزدق، جرير، الأخطل. ومنهم أبو تمام، والبحتري، ابن المعتز، والمتنبي. ومنهم ابن زيدون، وابن خفاجة، وابن هانئ متنبي الغرب، وابن الفارض شاعر المتصوفة، والبوصيري، وصفي الدين الحلي، ومنهم محمود سامي البارودي، وحفني ناصف، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، والزهاوي، وخليل مطران، وعلي الجارم، والرصافي، وبشارة الخوري (الأخطل الصغير)، وإبراهيم طوقان، فأعجبت بهذا الترتيب المتسلسل، الذي حفزني على تتبع تلك اللوحات لأتعرف أشخاصها. فالتفت يمنة فإذا تماثيل الحكماء والخطباء: هذا أكثم بن صيفي جاثم يشير على الناس باتباع الرسول وعرفان فضله، وذاك قس بن ساعدة صامت أوعظ منه حيا، وهناك ابن

الخطاب يشير إلى سارية "الجبل"، وزياد ينشر القانون بقوة بلا عنف، ويلين بلا ضعف، وداود بن علي يثبت دعائم العباسية، وشبيب بن شيبة صاحب الصور البيانية البالغة حد الإعجاز. ومنهم عبد الله نديم خطيب الثورة العرابية، ومصطفى كامل باشا منشئ الحزب الوطني المصري، وأول داع إلى تحرير أمته وبلاده؛ وهناك في زاوية يحيطها جلال الصمت الرهيب سعد باشا زغلول، كأن الموت لم يستطع أن يذهب بغيرته، ولم يستطع أن يحجب بيانه، فهو ما يزال بيننا خطيبا، وعلم الله أني كدت أسمع قوله المشهور "إني وضعت تحت تصرف أمتي مواهبي وبياني؛ فإن هي استفادت فذلك ما يجعلني سعيدا وإلا فهو واجب قمت به وأرحت ضميري".

وهذا محمد بن موسى الخوارزمي، أول من ألف في الجبر والحساب، وهو من أقدر رياضيي العرب، وأول مؤلف رياضي عربي ظل كتابه الغورتمي " Algoritomi, de Nemero Indorium " مرجع علماء أوروبا ردحا من الزمن، وهو من أعظم من ترك آثاره جليلة في العلوم الرياضية والفلكية والموسيقية، وهو المبتكر لكثير من بحوث الجبر التي ما زالت تدرس حتى

عصركم، وهو الذي عرف العالم بالأرقام الهندية، وقد اهتدى بعلمه علماء الأرض شرقا وغربا، وكانت مدنيتكم الحديثة مدينة له بكثير من الفضل.

وذاك يعقوب الكندي، وهو من العباقرة المعدودين في عالم المادة والروح، وقد وضع بجانبه الحسن بن الهيثم؛ لأنهما في الدرجة الأولى مع بطليموس، وهو صاحب العلم الجم والتآليف العجيبة، في الفلسفة والسياسة، والطب والموسيقى، والفلك والرياضيات، والأحكام والجدل وعلم النفس. وهو أيضا من تدين له أوروبا والعالم أجمع بما له من الآثار.

وهناك موسى بن شاكر، وأولاده الثلاثة الذين تركوا في علم الميكانيكيات أثرا ذا قيمة عظيمة، موسى الغربي أول من قال بقانون الجاذبية الذي ما برح العالم ينتفع به أيما انتفاع، وأولاده أول من قاس أبعاد الأرض في عصر المأمون، وعرفوا حركتها واستدارتها، واستبطنوا كثيرا من أسرارها.

راعني ذلك إذ رأيت اللغة ناطقة بآثار هؤلاء، نابضة بتماثيلهم، فشاقني أن أراها مؤرخة علما وفلسفة، وحياة اجتماعية، على

لسان نابغيها العلماء والفلاسفة، الذين ما زالوا أساتذة العالم، وواضعي أسس الحضارة ما تعاقب الملوان. فنظرت يسرة؛ لأجد بغيتي أو اسأل عن مقصدي، وإذا هي تماثيلهم تشهد الدنيا بعظيم الصلة بين المادة والروح، وبكبير الفضل بين العقل والمادة.

فهذا مالك بن أنس ينشر حديث الرسول شارحا غوامض الحياة، وذاك فخر الدين الرازي يفرع من كل حقيقة مسائل، وينتزع منها حكمة الفلسفة وفلسفة الحكمة، فيلهم العقل رشده في تعرف بواطن الحياة وأسرارها.

وهذا الغزالي يتعهد تربية الانسان بالتي هي أحسن، ولا يرضى إلا أن يكون صحيفة بيضاء. ثم هو في تمثاله ما يزال غاضبا على من شذ من الفلاسفة؛ يرسل من غضبه بينات تبطل ما يأفكون. وهذا الإمام الفارابي دائرة معارف عصره، وعلى مقربة منه ابن سينا يحاضر في طب الأرواح والأبدان، وهذه الأجيال تصغي إليه فتروي ما يقول. وهذا ابن رشد يتقمص أرسطو، وينهج سبيل الحرية في الفكر والقول، وهو ما يزال متمسكا برأيه في أزلية المادة، وأن الكون خلق من الحركة. وشيخ المعرة البصير أبو العلاء يذيع آراءه

في المادة وفي المرأة، والأبناء وسائر فروع الاجتماع. وهناك طائفة من العلماء والرواة والمؤرخين الذين نقلوا إلينا اخبار السالفين، أذكر منهم: الزمخشري، والأصمعي، والسيوطي، والشهرستاني، وابن الجوزي، والسهروردي، والآمدي، والثعالبي، وابن خلكان، وابن الأثير، وابن خلدون، والطبري، والمقريزي، وأبا الفداء، والواقدي.

- وقد سألت: أيوجد غير هؤلاء التماثيل الذين هم عنوان نهضة وارفة الظلال؟
- قال: أجل. فإن أنت نسيت، فإن ذاكرة التاريخ لن تنسى جماعة آخرين، لهم من الفضل ما للشمس من أثر. انظر، هؤلاء اللغويون والمنشئون الذين أينعت اللغة بعبقريتهم: فهذا الخليل بن أحمد واضع أسلوب المعاجم، على طريقته العجيبة التي لم تستطع العصور أن تأتي بأحسن منها، وهو مستنبط موسيقى الشعر، فكانت بحورا اقتحم الشعراء عبابها، واستخرجوا لآلئها.

والذي يقرب منه، هذا ابن دريد صاحب الجمهرة الذي جمع فيها فأوعى. واللذان يبعدان قليلا: عبد الله بن المقفع الذي نقل التفكير الآري، إلى البيان العربي السامي. وصفيه عبد الحميد الذي بسط أسلوب السهل الممتنع، والمبدع أجمل أساليب النثر البياني. وهذا أبو عثمان الجاحظ أعجوبة الزمان، وبجانبه القاضي الفاضل صاحب الطريقة الفاضلية. ويأتي بعده إبراهيم المويلحي، صاحب حديث عيسى بن هشام، والمنفلوطي صاحب النظرات، والشيخ حمزة فتح الله صاحب المواهب، وذاك الرافعي صاحب الإعجاز، وهذا أديب فلسطين ونابغة العربية محمد إسعاف النشاشيبي صاحب الإسلام الصحيح، والشيخ عبد القادر المغربي، والشدياق، ومحمد كرد علي، وأولئك هم المصلحون الأبرار: جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا.

- قلت: وما هذه الطوائف الكثيرة المتراصة؟
- قال: هذه تماثيل أهل الفضل في العلم والأدب، وسائر فروع المعرفة، من أهل أقطار العربية: مصرها وشامها، وعراقها ونجدها، وحجازها ويمنها، فأنا لم نغادر منهم أحدا؛ عرفانا الفضل وتخليدا للأثر.

- قلت: ألم تشترك المرأة العربية بهذه النهضة التي أقامها هؤلاء؟
- قال: بلى. انظر فذاك خدر الخنساء، وهي تحجز العبرة وتعتصم بالصبر، وتنطلق مستبشرة بما شرفها الله به من استشهاد فلذات كبدها؛ ذودا عن العروبة والإسلام. وهذه ليلى الأخيلية، وتلك هند بنت خنس الأمادين، وضرام بنت الريان، ثم قتيلة بنت الحارث، ففاطمة بنت الرسول وعائشة زوجته، وشقيقتاها أسماء وحفصة، وهند أم معاوية، وزبيدة عقيلة الرشيد، وخولة بنت الأزور شقيقة ضرار في نسبه وجهاده.

ثم أخذني من يدي إلى حوزة كتب عليها "صفحة المجد الخالدة" رأيت فيها: سيف الله المسلول، خالد بن الوليد بطل اليرموك، وعلي بن أبي طالب فاتح حصون خيبر، وسعد بن أبي وقاص صاحب القادسية، وأبا عبيدة فاتح الديار الشامية، وعمرو بن العاص صاحب أجنادين وفاتح مصر، وعقبة بن نافع فاتح شمالي أفريقيا، وموسى بن نصير مثبت دعائم الإسلام في أفريقيا، و طارق بن زياد فاتح الأندلس، وأبا مسلم الخراساني العامل على إقامة

العباسية، وصلاح الدين الأيوبي صاحب حطين ومنقذ بيت المقدس، وعرابي باشا، والأميرين عبد القادر الجزائري، وعبد الكريم بطل الريف، والملك حسين وأنجاله المغاوير علي وعبد الله وفيصل.

وبينما كان محدثي يعرض عليّ تماثيل ذوي الفضل الأكبر، وإذا بالريح تعبق بأريج يضوع؛ فيرسل إلى النفس من معاني الخلد، ما تستطيع أن تشعر بلذته، ولا تستطيع أن تعبر عنه، ولعمر الحق، لو استطاعت نفسي أن تعبر عنه؛ لأبقيته مكنونا في فؤادي لأجد فيه معاني الجلد، ولأحيا في ظلال الله ساعة أو بعض ساعة. فرآني صاحبي منصرفا عنه، متداخلا في نفسي، متحيرا في تفكيري.

- فقال: ما الذي صرفك عني؟
- قلت: لا أستطيع أن أشرح لك ما خالج ضميري، مما يحمله النسيم من هذا المسك المتضوع، ومن رؤيتي هذه التماثيل المتحركة، الناطقة التي تنعم في هذا الرفه الذي ليس له نظير، فهم بين قطوف دانية، وثمر جني، وطعام شهي، ولهم من الخير ما يشتهون؛ وإن عجبي لا ينقضي من مشهدهم، فقل

لي بربك، فكيف تنطق التماثيل، وكيف تنعم، ولماذا تكرم، وهل تشعر؟

- قال: أجل، أجل! هؤلاء الذين قال فيهم جل جلاله "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون".

فدنوت منهم في إجلال وخشوع، فإذا فيهم : سليم الجزائري، وعبد الحميد الزهراوي ، وعبد الكريم قاسم الخليل ، وعبد الغني العريسي، وسيف الدين الخطيب ، وعبد الوهاب الإنجليزي، وشكري العسلي، وحافظ السعيد، ومحمد المحمصاني، ورفيق رزق سلوم، ومحمود المحمصاني، وشفيق المؤيد ، وجلال الدين البخاري، وأحمد عارف الحسيني، وولده مصطفى، وعلي النشاشيبي، و عارف الشهابي، وعمر حمد، وعلي الأرمنازي، وعمر الجزائري، وصالح حيدر، ونايف تللو، وأحمد طبارة، وسعيد عقل، وتوفيق البساط، وجورجي الحداد، ورشدي الشمعة، وعبد القادر الخرسا، ويوسف العظمة، وفؤاد سليم، وأحمد مريود ، وعادل نكد، ورشيد طليع، و.. و.. و.. وغيرهم كثير يعجز عن عدهم الحصر، من روت أرض الجزيرة العربية دماءهم، وزكى نبتها

بطيب أجسادهم، فما من زهر يعطر الكون بشذاه، ويحيي القلوب بمعناه، إلا وهو يحدث من مجدهم خبرا ويسجل من بطولتهم أثرا، ولعل سائل الديار، ومستنطق الآثار، يهتدي إلى علم من خبر هم إذ الأرض ناطقة، والسماء ناظرة، وشواهد الحق بينة، وما يوم حليمة بسر. ورحم الله شهداء العروبة والإسلام كلما ذكروا بذلك الإحسان.

وفيما أنا كذلك، استرعى نظري، تمثال كبير، يفهم الناظر لأول وهلة يقع نظره عليه، أنه تمثال رجل عظيم، رفعت الأمة قدره، وفضلته على جميع أولئك العظام، الذين مررنا قبل هنيهة بتماثيلهم. فاقتربت منه لأعرف من هو، وإذا بي أمام سطور جميلة، خطت بقلم ذهبي. فقرأتها، وإذا هم فيها يقولون:

هذا هو حكيم العرب، وفخر الشرق، وأديب الكون، ومصلح العالم، ورسول العدل، وبشير النجاة، ودليل الحكمة، ورائد البشرية، ومنقذ الضالين، وحبيب المنصفين! هذا هو الذي أمر الناس بالتعاون والتحابب، وركز بيديه دعائم الاشتراك والاجتماع! هذا هو الذي نفخ في الأجسام الخاملة حب النهوض والحياة،

وألقى فيها روح العدل والحرية والمساواة! هذا هو الذي علم الناس كلمة (الشورى)، وحظر على الملوك والجبابرة الأقوياء، ظلم الرعية وغدر الضعفاء! هذا هو الحكيم الأمين، الذي أوصى الناس بالعدل والحلم، والرأفة واللطف، والكرم والتفاؤل، والحب والشفقة، والعفو والجهد، والثبات والإقدام! هذا هو النور اللطيف، الذي جمع شتات المتباغضين ولم شعث المتفرقين، وحض الناس على انتجاع موارد العلم ولو بالصين!

ويلاه من يقصدون؟ الرسول! وافضيحتاه! لا. لا! إني صبرت على كل ما سمعت ورأيت، إلا على هذا، فاني لا أطيق صبرا. أوصلت بهم وقاحتهم، إلى أن أقاموا للرسول تمثالا؟ رباه ماذا جرى؟ وماذا طرأ على حياة العرب، حتى تبدلت أخلاقهم وعاداتهم، وعقائدهم ومبادئهم، بل وكل شيء فيهم؟

رباه ما العمل؟ وكيف الخلاص؟ وإلى أين المصير؟

وفيما كنت سابحا في فضاء الهواجس والخيال، اقترب الطير مني، وهمس في أذني هذه الكلمات: "أنا الطير الذي أتى بك إلى هذا المكان: اعلم أنه لا مناص لنا من الإذعان لحكم الطبيعة!

والاعتراف بأن الأحكام تتغير، بتغير الأمكنة والازمان. إن حاجات الإنسان تنمو كلما تقادم عهد البشرية، وعقائد البشر تتطور كلما انقضت أجيال، وجاءت أجيال. بيد أن السنن الطبيعية التي تسبب هذا التطور، وتقود تلك الحركة الفكرية، تبقى، ما دام الكون، ثابتة.

ولذلك، يجب علينا ألا نعجب كل العجب، إذا رأينا أن عرب اليوم ليسوا كعرب الأمس، أو إذا قيل لنا إن العقائد التي كانت تعد بالأمس كفرا وإلحادا، أصبحت لديهم اليوم سراجا يهتدون به، وشريعة يعملون بمقتضاها. ولنعلم حق العلم، إنهم ما كانوا في جميع أدوار حياتهم، إلا منقادين لنواميس الطبيعة، وسنن النشوء والارتقاء!

عندها شعرت كأن عزائمي قد خارت، وكأن عيناي قد غارتا في رأسي، فانطرحت على الأرض صارخا باكيا مستنجدا. ويا لعجبي ما أشده، عندما رن في أذني صوت الجرس، الذي كان يقرعه ربان السفينة (دونيرا)، ليوقظ الركاب من نومهم. ففتحت عيني، ورأيتني مستلقيا في فراشي، ملتحفا بغطائي. وبعد برهة جاءني

الخادم بقدح من الشاي. فأيقنت حينئذ أن كل ما رأيته وسمعته عن العرب والعربية في نومي، كان ولا ريب أضغاث أحلام.

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان